

قصصا مات

طه حسين

دار المحرر الأدبي

قصصات

طه حسين

دار المحرر الأدبي

ملكة الجمال

هناك ابتسامة تتردد كثيراً قبل أن ترسم على بعض الثغور . وتتألق في بعض الوجوه . أو قل إن هناك ثغوراً ووجوها تتردد كثيراً قبل أن تقبل أن ترسم عليها ، وتتألق فيها بعض الابتسامات . أو قل إن هناك نفوساً تتردد كثيراً قبل أن تتخذ ثغورها ووجوها مظاهر لهذا الذي يعرب عنه الابتسام في بعض الظروف . وقد فكرت في هذه الابتسامة المترددة ، وفي هذه الثغور والوجوه والنفوس التي تتردد بين الرضا والسخط ، وبين ما يظهرهما ، ويدل عليهما من الابتسام والعبوس ، حين قرأت في الصحف أخبار ملكة الجمال وتشريفها لمصر بزيارتها السعيدة الموفقة .

فكرت في هذه الابتسامة المترددة ، لأنني أحسست تردها على شفتي ، فرأيتهما تحاولان الانبساط ثم تعودان

فتنفر جان وتنسبطان بالابتسامة ، ثم تستقر عليهما هذه الابتسامة التي كانت مترددة ؛ ولكنها تستقر في سخرية إلا تكن شديدة المرارة ، فليس فيها شيء من حلاوة الرضا . ذلك لأنني لا أدري أوفقت الإنسانية حين فتحت على نفسها هذا الباب الظريف السخيف ، الذي يدخل عليها منه ظرف كثير ، ويدخل عليها منه سخف كثير؟ ومن يدري لعل الظرف والسخف صديقان لا يفترقان ، وحليفان لن يختصما ، أو تتغير الأرض ومن عليها وما عليها . وهذا الباب الظريف السخيف الذي يبعث الرضا ويبعث السخط ، والذي يغيظ ويلهي هو باب المسابقة إلى الفوز بسلطان الجمال !

خطرت هذه الفكرة لكاتب فرنسي ، ليس هو من المتعمقين في الجدل ، ولا هو من المتهالكين على الهزل . وإنما هو كاتب خفيف ظريف ، يرضى في سهولة ، ويرضى الناس في يسر ، وتنفق عندهم سوقه في غير مشقة . وأكبر

الظن انه يسخر من الناس ومن نفسه وأكبر الظن انه إنما يرضي الناس ويعجبهم لأنه يسخر منهم ، يستهزئ بهم ويخيل إليهم أنه يجد كل الجد حين يسوق إليهم الأحاديث ، مع أنه لا يزيد على أن يهزل أشد الهزل والطفه ، ولعله إنما يفعل هذا كله ، فيهزل جاداً ويجد هازلاً لأنه صحفي ، أو قل لعله إنما أصبح صحفياً رائجاً نافق السوق لأنه يفعل هذا كله . وأنا اعتذر إلى الصحفيين ولكنني أعتقد أن صاحبة الجلالة الصحافة إنما أقامت عرشها العظيم على هذه الدعائم المتينة الصلبة من سياسة الجمهور . وإنما تساس الجماهير في ظل الديمقراطية أحسن سياسة وأجداها حين تلبس لها ثوب الجد وأنت تهزل ، وترتدي لها رداء الهزل وأنت تجد ، وتظهر لها على كل حال من نفسك ما تريد أن تظهر لا ما ينبغي أن تظهر . هذا الكاتب الفرنسي اللبق الذي فتح للإنسانية باب الجمال على مصراعيه وأثار في رءوسها الفارغة فكرة المسابقة إلى

سلطان الحسن هو (موريس دواليف). خطرت له هذه الخاطرة ذات يوم وهو يمزح ، أو ذات ليل وهو يلهو ، فتحدث فيها إلى صديق أو صديقين ثم إلى زميل أو زميلين ثم إلى إدارة الجرنال . وما أصبح الصباح حتى ملأت الفكرة باريس . وما أمس المساء حتى ملأت الفكرة فرنسا . وما كان الغد حتى ملأت الفكرة أوروبا ، وما مضت أيام حتى ملأت الفكرة الأرض كلها ولعبت برؤوس الناس جميعا . وهذا مصدر آخر من المصادر المادية لسلطان صاحبة الجلالة الصحافة هو أنها ترى الرأي فإذا هو أمام الناس جميعا أو أمام جماعات ضخمة منهم في وقت واحد أو في أوقات متقاربة . ومن حوله المغريات والمرغبات والمثيرات للميل . فيلقى الناس بعضهم بعضا وقد قرءوا الصحيفة وإذا هم يتساءلون : وما رأيك في هذه الفكرة الطريفة الظريفة معا فكرة موريس دواليف في هذه المسابقة التي استدعى إليها الفتيات لإظهار ما لهن من جمال

بارع وحسن فتن . ثم تعود أصداء الدعوة من باريس وفرنسا و أوروبا وأطراف الأرض إلى الجورنال ، وإذا الفكرة قيمة ، وإذا التجربة الأولى تهيأ ثم تتم ، وإذا للجمال ملكة في فرنسا ، وإذا البلاد الأخرى تسير مسيرة فرنسا ، وإذا لكل بلد ملكة للجمال ، وإذا المسابقة أوروبية بين صاحبات الجلالة القومية . وإذا لأوروبا ملكة ، ثم للعالم كله ملكة ، وإذا نظام جديد قد أقيم ، وإذا الديمقراطية المتطرفة والاشتراكية الغالية والأرستقراطية المعتدلة والأوتوقراطية المسرفة . كل هذه النظم المختلفة المتباعدة قد اتفقت على الإذعان لسلطان الجمال .

ولكن سلطان الجمال وان استعار ألقاب الملكية ، أحاط نفسه بألوان القوة وضروب الأبهة ، ضعيف نحيف ، فاتر قصير المدى كالجمال نفسه ، فهو ملك ، ولكنه أشبه بالجمهورية ، وأي جمهورية؟ أشبه بالجمهورية القديمة ؛ جمهورية اليونان والرومان لا يدوم السلطان فيه لصاحبه

أكثر من سنة ، وهو ملك ، ولكنه لا يورث ، وإنما يكسب بالانتخاب ، وأي انتخاب !! انتخاب ضيق محدود متأثر بالأغراض والأعراض السياسية في كثير من الأحيان ، فيجب أن يكون ملك الجمال قسمة بين الشعوب تتبادل سلطانه فيما بينها ، تظفر به فرنسا ثم تمره إلى بلجيكا ، وهذه تمره إلى هولندا ، وعلى هذا النحو حتى يكون لكل شعب حظه من هذه السيادة العالمية البريئة . البريئة ؟ مسألة فيها نظر ! فهي سيادة بريئة بالقياس إلى الشعوب والأقاليم والمدن والقرى ، ولكن براءتها تتعرض للشك والخطر في كثير من الأحيان ، ذلك أن هذا الملك الطارئ السريع الزوال يعبث برؤوس الملكات وأسرهن ، ومن طبيعة الملك أن يعبث برؤوس الا إذا اعتمد على دستور صحيح متين ، وليس لملك الجمال دستور ، وملك الجمال لا يعبث برؤوس الملكات وحدهن ، وإنما يعبث برؤوس كثير من الرعية أيضا ، من الشبان والشيوخ وأصحاب الملاعب

والمراقص والسينما ، ثم ملك الجمال فصيح على هذا العبث ، فهو يجري أقلام الكتاب في الصحف ، ويطلق ألسنة السيدات في الصالونات ، ويزيد هذا كله في الدوار واضطراب العقول . لذلك لا تكاد ملكة ترقى إلى عرش الجمال حتى يصبح مصيرها بعد الخلع - أستغفر الله - بعد الاعتزال مشكوكا فيه . وأكبر الظن أنها صائرة إلى ملعب من ملاعب اللهو ، أو ناد من أندية الرقص ، أو دار من دور السينما ، أو إلى هذه جميعا .

فملك الجمال في حاجة إلى دستور يضمن الملكة ألا يكون ارتقاؤها إلى العرش وسيلة إلى ابتذالها .

على أن ناحية أخرى من نواحي هذا العبث الذي يعبثه ملك الجمال بالعقول خليقة بالملاحظة ، فملكات الجمال يؤمن بملكهن عادة ، ويصدقن أنهن ملكات حقا ، وكثيرا ما تؤمن لهن الجماعات بهذا الملك ، فيصبح المزاح جداً واللعب حقا لا شك فيه ، وينشأ عن هذا الجد الطارئ

وعن هذه الحقيقة الإضافية الموقوتة التي لم يفكر فيها
أينشتين بعد ، لون من الحياة الذي يبعث هذه الابتسامات
المتردة التي تحدثت عنها أول هذا الفصل .

أنظر إلى ملكة الجمال التي شرفت مصر بزيارتها هذه
الأيام لم تكدهم بهذه الزيارة حتى سبقتها الأنباء فطربنا
واستشعرنا شيئاً من الغبطة لا حد له وتفضلت صاحبة
الجلالة الصحافة فقامت لزميلتها في الملك بما يجب من
الإعلان ونشر الدعوة . ثم وصلت ملكة الجمال فلم يكن
بد لصاحبة الجلالة الجميلة من أن تتناول الشاي عند
صاحبة الجلالة الفصيحة البليغة . وكانت دار الجهاد ملتقى
الملكتين على مائدة صديقي توفيق دياب ، وتفضلت
الملكتان ملكة الجمال وملكة الكلام بشيء من العطف
الغالي الكثير على طائفة من الرعية المولهة المفتونة ، وكنت
ممن مسهم هذا العطف . ولكن ملكة أخرى ثقيلة ممقوتة
تبسط سلطانها الآثم على الناس في الشتاء وهي صاحبة

الجلالة البغيضة الأنفلونزا حالت بيني وبين الاستمتاع بهذا
العطف السامي من صاحبة الجلالة الجميلة وصاحبة
الجلالة الفصيحة . فأسفت وما أشد ما أسفت !

وملكة الجمال ظريفة كما ينبغي أن تكون فلم تكد
تصل إلى مصر حتى أدت طائفة من الواجبات بفرضها
عليها جلال الملك وسماحة الجمال فقيدت اسمها في
قصرها الملكي العالي ثم ثبت فزارت رئيس الوزراء . فلما
فرغت من السلطة التنفيذية تعظفت على السلطة التشريعية
فتفضلت بزيارة البرلمان . فأدى وكلاء الأمة واجبهم بين
يدي جلالتها كأحسن ما تكون التأدية .

ثم لم تكد صاحبة الجلالة تفرغ من مصر الرسمية حتى
تفضلت ففكرت في مصر المعارضة . والملك فوق الأحزاب
فتعظفت بزيارة حضرة صاحب الدولة رئيس الوفد
المصري ثم فكرت في مصر التي لا تشتغل بالسياسة وإنما
تشتغل بالإصلاح الاجتماعي والاقتصادي فتفضلت

بزيارة حضرة صاحبة العصمة رئيسة الاتحاد النسائي
وزارت دار الاتحاد وشهدت فيه التمثيل وزارت دور
الصناعة والتجارة وهي في هذه الزيارات تؤدي لكل حقه
بما فطرت عليه من جمال وظرف وأدب ورشاقة وخفة
روح ، وإذا جلالة أخرى رسمية تشرف مصر وهي الجلالة
الإيطالية فينقطع حديث الجمال ويتبدى حديث السياسة .
وليست هذه الصحيفة من السياسة في قليل ولا كثير ،
فلتكتف إذا بأن ترحب في صدق وإخلاص بصاحبي
الجلالة الإيطالية ثم لتعد إلى ملكة الجمال ، فلتتمن لها
التوفيق بعد الملك كما وفقت أثناء الملك ولتلتفت بعد
ذلك إلى القارئ الكريم فننصح له بأن يقرأ قصة تمثيلية
بديعة أنشأها الكاتبان الفرنسيان جورج بيروولويس
فرنويل ، موضوعها ملكة الجمال وعنوانها (مس فرانس)
فسيجد القارئ في هذه القصة جداً وهزلاً وفكاهة وصراحة
ولذة قوية على كل حال .

أديب

- ١ -

زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس ، فهو لا يحس شيئاً إلا أذاعه ، ولا يشعر بشيء إلا أعلنه . وهو إذا انظر في كتاب أو خرج للترويض أو تحدث إلى الناس فأثار شيء من هذا في نفسه خاطراً من الخواطر ، أو بعث في قلبه عاطفة من العواطف ، أو حث عقله على الروية والتفكير لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأي أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر في دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس . ذلك لأنه مريض بهذه العلة التي يسمونها الأدب ، فهو لا يحس لنفسه وإنما يحس للناس . وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس ، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر للناس ، وهو

بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للناس . وهو حين يأتي من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ويضلّلها أقبح التضليل . فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الإحساس والشعور والتفكير ، وإنما يريد أن يشرك الناس في هذا الخير الذي تنتجه طبيعته الدقيقة الخصبة الغنية ، فإذا كان متواضعا معتدل الرأي في نفسه فهو شقيّ تعس محزون يجب أن يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن . لعلهم يرثون له أو يرأفون به أو يشفقون عليه ، وربما لم ير في نفسه إيثارا ولم يحسس أنه شقيّ ، وإنما أثر نفسه بالخير وأحبها قليلا أو كثيرا فهو يسجل ما يحس وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع ، وليستطيع العودة إليه من حين إلى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية . وكثيرا ما تعرض له الفرض التي تحمله على أن يستعرض حياته الماضية ، والذاكرة قصيرة ضعيفة . فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي

يتكون منها تاريخه الفردي الخاص ليعود إليه كلما دعاه إلى ذلك جد الحياة أو هزلها ، وما أكثر ما يدعو جد الحياة وهزلها إلى أن يستعرض الإنسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من الأحداث .

يخدع الأديب نفسه هذه الضروب من الخداع . ويعللها بهذه الألوان من التعللات ، وحقيقة الأمر أنه يكتب لأنه أديب لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كتب ، يكتب لأنه محتاج إلى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لأنه محتاج إلى الطعام والشراب والتدخين . وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب ، وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجري به القلم ، كما أنه حين يأكل ويشرب ويدخن قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ ؛ إنما هي حاجة تضطره إلى الحركة فيتحرك ، وتدفعه إلى العمل فيعمل . فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير

فيها في يوم من الأيام حين تصبح أمرا مقضيا لا ينصرف عنه ، ولا سبيل إلى التخلص منه .

إذا كان هذا كله صحيحاً ، وأكبر الظن أنه صحيح ، فيجب أن يكون صاحبي الذي أريد أن أتحدث إليك عنه أديبا ، فلست أعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت إليهم رجلا أضتته علة الأدب واستأثرت بقلبه ولبه ونفسه كصاحبي هذا ، كان لا يحس شيئا ولا يشعر شيئا ولا يقرأ شيئا ولا يرى شيئا ولا يسمع شيئا إلا فكر في الصورة الكلامية ، أو بعبارة أدق في الصورة الأدبية التي يظهر فيها ما أحس وما شعر وما قرأ وما رأى وما سمع . وكان يجد مشقة شديدة في إخفاء تفكيره هذا على الناس ، فكثيرا ما كان يقول لأصحابه إذا رأى شيئا أسخطه أو أرضاه : ما أخلق هذا الشيء أن ينشئ صورة أدبية ممتعة للسخط أو الرضى ، وكان يقضي نهاره في السعي والعمل والحديث حتى إذا انقضى النهار وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن

الناس وخلا إلى نفسه أسرع إلى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه الإعياء . وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم ، وتختلط الحروف أما عينيه الزائغتين ، ويأخذه دوار ، فإذا القلم قد سقط من يده ، وإذا هو مضطر إلى أن يأوي إلى مضجعه ليستريح ، ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته ، فقد كان يكتب نائماً كما كان يكتب يقظاً ، وما كانت أحلامه في الليل إلا فصولاً ومقالات ، وخطباً ومحاضرات ، ينمق هذه ويدبج تلك كما كان يفعل حين كانت تجتمع له قواه العاملة كلها ، وكثيراً ما كان يحدث أصدقاءه بأطراف غريبة قيمة من هذه الفصول والمقالات التي كانت تملئها عليه أحلامه فيجدون فيها لذة ومتاعاً ، وكثيراً ما كان يقرأ عليهم فصولاً من النثر ومقطوعات من الشعر أملتها عليه يقظته وسجلتها يده حين كان يخلو إلى نفسه بعد أن يكون قد ملأ عينيه وأذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط به من

الأشياء ، وبما يمسه من الناس ومن الحياة ، وكان أصدقاؤه إذا سمعوا منه هواجس الأحلام أو خواطر اليقظة ألحوا عليه أن يذيع ذلك وينشره ، فبيتسم ثم يهزأ ثم يمتنع عليهم ويلح في الامتناع ، لأنه كان يؤمن بأن ما يكتبه لم يصل بعد إلى أن يكون خليقا بأن يقدم إلى المطبعة ، فهو كان يخاف المطبعة ويكبرها ويحيطها بشيء من التقديس غريب ، وكان يتحدث بأن ما يقدم إلى المطبعة من الآثار المكتوبة أشبه شيء بما كان يقدمه الوثنيون القدماء إلى آلهتهم من الضحية والقربان ، وبما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون إلى إلههم من الصلاة والدعاء . فمن الحق أن تصطفى الضحية وأن يتخير القربان ، وأن تكون الصلاة قطعة من النفس ، وأن يكون الدعاء صورة للقلب ، والعقل جميعا ، وكان صاحبنا يرى أن ليس فيما كتب ضحية تصطفى ، ولا قربان يختار ، وانه لم يوفق بعد إلى أن يودع القرطاس قطعة من نفسه ، أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله ، فما زالت

الأماد بينه وبين المطبعة بعيدة، وما زالت الأستار
والسجف دونه مسدلة، فليكتب إذا لنفسه لا للمطبعة،
فإذا ضاق بنفسه وبما تملي فليظهر أصدقاءه على شيء منه
ليرضي هذه الحاجة القوية التي نحسها جميعا إلى أن نشرك
الناس فيما نجد من حس أو شعور، والحق أن صاحبي لم
يكن يقدم على هذا إلا كارهاً مضطراً حين لا يجد بداً من
الاقدام، أو حين يسأله أصدقاؤه عما أحدث بعدهم،
وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه، كما يمنعه من
عرض جسمه عارياً على الناس، ولكن أصدقاءه لم
يكونوا في حاجة إلى أن يروا شخصه عارياً، وكانت
حاجتهم شديدة إلى أن يروا نفسه كما هي، لأنها كانت
جميلة خلابة تروعهم حيناً وتثير في نفوسهم الحب والمودة
دائماً.

كان قبيح الشكل نابي الصورة تقتحمه العين ولا تكاد
تثبت فيه، وكان إلى القصر أقرب إلى الطول، وكان على

قصره عريضاً ضخماً الأطراف مرتكبتها ، كأنما سوى على
عجل فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص ،
ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد ، وكان وجهه جهما
غليظاً يخيل إلى من رآه أن في خديه ورماً فاحشاً ، وكان له
على ذلك أنف دقيق مسرف في الدقة ، منبطح غال في
الانبطاح ، قد اتصل بجبهة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها
شعره الغزير الجعد القاصم ، لم تكن قد تقدمت به السن
بل لم يكن جاوز الثلاثين ، ولكن علامات الكبر كانت
بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها أحد ، كان على قصره
مقوس الظهر إذا قام ، منحنيّاً إذا جلس ، ولعل إدمانه على
الكتابة والقراءة وإسرافه في الانحناء على الكتابة أو
القرطاس هما اللذان شوها قده هذا التشويه ، وقلما كان
وجهه يستقيم أمامه ، إنما كان منحرف العنق دائماً إلى
اليمين أو إلى الشمال ؛ وقلما كانت عيناه الصغيرتان
تستقرآن بين جفونه الضيقة ، إنما كانتا مضطربتين دائماً لا

تكاد ان تستقر أن على شيء حتى تدعاه مصعدتين في السماء ، أو تنحرفا عنه إلى ما يليه من إحدى نواحيه . ولم يكن صوته عذبا ولا مقبولا ، وإنما كان غليظاً فجأً ، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجري عليه إذا قرأ شيئاً فيه تأثر وانفعال ، وكان له ضحك غليظ مخيف يسمع من بعيد ، بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظاً مخيفاً ، يسمع من بعيد ، ولم يكن للنجوى معه سبيل ، وكثيرا ما ضايقه ذلك حين كان في باريس ، وكثيرا ما حمل ذلك الناس عامة وأصدقاءه خاصة على أن يضيقوا به ويحتنبوه إذا لقوه في قهوة أو ناد أو ملعب من ملاعب التمثيل . وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس ألي وأكرمهم علي وآثرهم عندي وأحسنهم مسلكا إلى نفسي ومنزلا من قلبي ، كان يزورني فانصرف إليه عن كل شيء ، وأقضي معه الساعات ، فإذا تركني خيل ألي أنني لم أقض معه إلا اللحظات القصار . وكنت إذا أعينني الدرس واحتجت إلى

الرياضة أو الراحة ، آثرت زيارته والتحدث إليه والاستماع له على كل ما كانت تقدم إلى القاهرة أو باريس من أنواع الرياضة والراحة .

- ٢ -

فقد عرفته في القاهرة قبل أن يذهب إلى باريس ثم أدركته إلى باريس بعد أن سبقني إليها ، عرفته مصادفة وكرهته كرها شديدا حين لقيته لأول مرة ؛ كنا في الجامعة المصرية القديمة في الأسبوع الأول لافتتاحها وكنت أختلف إلى ما كان يلقي فيها من المحاضرات حريصاً عليها مشغولاً بها معتماً أن لا أضيع حرفاً مما يقول المحاضرون . وكان مجلسي لهذا دائماً قريباً من الأستاذ ، فأني لمصغ ذات ليلة إلى الأستاذ وإذا بصوت من ورائي ينطلق بالحديث هادئاً ولكنه ، على هدوئه يغمر أذني جميعاً ، ويكاد يخفي علي صوت الأستاذ ، فأجد في التخلص منه فلا أفصح ، وأضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحبي اللذان

يكتنفانني ، فلتفت إلى صاحب الصوت نطلب إليه الصمت فلا يسكت الا ريثما يستأنف الحديث ، ونراجعه مرة أخرى فلا يحفل بنا ، فنشكوه إلى الأستاذ فيضطره الأستاذ إلى الصمت ، حتى إذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا ، فيعرض لنا في غلظة ، فإذا زعمنا له أن من حقنا أن نسمع الأستاذ ، وأن ليس له أن يصرفنا عنه قهقهة قهقهة مخيفة ، وقال في صوت ما نشك أن الأستاذ قد سمعه : (وماذا تريدون أن تسمعوا؟ ولكنكم معذورون ، جئتم من الأزهر فكل شيء عندكم قيم ، وكل شيء عندكم جديد) .

واجتهدنا بعد ذلك في أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات ، وأن نختار لأنفسنا مجلساً بعيداً منه أقصى غاية البعد . تركناه ولكنه لم يتركنا ، وكأنما عمائمنا كانت تغريه بنا وتحرضه علينا ، فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ بجبتي أو قفطاني وهو يسألني (أأعجبتك

المحاضرة؟) فان قلت (نعم) قال : وماذا أعجبك منها؟ وهل فهمتها على وجهها؟ وكان يقول لي : هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات ، ولا تنهالك عليها هذا التهالك ، فهي أقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع ، فلما ألح علي في ذلك سألته وإذا كنت ترى هذا الرأي فما اختلافك إلى الجامعة؟ وما استماعك للمحاضرات وما تهوئشك علينا بصوتك العالي وحديثك الذي لا ينقطع؟ فضحك وقال : الجامعة شيء جديد أحب أن أراه ، وقد سئمت القهوة ، ولو لم يكن في الجامعة الا أنت وأصحابك هؤلاء الذين تتفتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون في كلف ونهم مصدرهما الجهل العميق ، لكان هذا كافيا لأن يختلف إلى الجامعة واستمع للمحاضرات . ثم سألني ذات يوم : أين تقيم؟ أجبتة : أقيم في حي كذا . قال : ومع من تقيم؟ قلت : مع جماعة من الأهل والأصدقاء كلهم يطلب العلم في الأزهر أو في

المدارس المدنية ، قال : إن منزلك بعيد وليست بيئتك بالتي تحب ، فأنا لا أحب مجالس الطلبة ، وأنا مع ذلك حريص على أن أجلس معك وأتحدث إليك فأطيل الحديث ، بل أنا حريص على أن أقرأ معك بعض الكتب ، فلا بد إذا من أن نلتقي ، ومن أن نلتقي في نظام واطراد فليكن ذلك عندي ، ولك علي أن أردك إلى أهلك وأصدقائك قبل أن يتقدم الليل ، ودون أن تجد في ذلك مشقة أو تحمل فيه عناء . وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض في لهجة الحازم الواثق بأن أمره سيطاع ، وقد هممت أن أرد عليه معتذراً ، وما كان أكثر المعاذير ! فلم أكن أستطيع أن أسهر ولا أتعرف إلى أحد دون إذن من أخي ، وكان علي أن أغدو مع الفجر إلى درس الأصول ، ولم يكن بد من أن أستعد لهذا الدرس وغيره من دروس الأزهر ، وأن أعوض هذا الوقت الذي أضيعه كل مساء في الجامعة على كره من أخي في القاهرة وأسرتي في الريف . هممت أن

أعتذر ولكنه لم يمهلني ولم يتح لي أن أقول حرفا ، وإنما استوقف عربة ودفعني فيها دفعا وأمر خادمي الأسود الصغير أن يجلس إلى جانب السائق ، وجلس هو إلى جانبي وقال للسائق بصوته الغليظ العريض : إلى القلعة ، وكنت أسكن في أقصى الجمالية ، فلما أخذت أقدر بعد الأمد بين داره وداري ، وهممت أن أتكلم وضع يده على كتفي وقال : ألم أقل لك أنني سأردك إلى حيث تقيم؟!

- ٣ -

وقطعت بنا العربة أحياء مختلفة ، ومضت بنا في أجواء متباعدة وكنت أحس اختلاف الأحياء وتباين الأجواء فيما يصل إلي من أصوات الناس وحركاتهم ، ومن اضطراب الأشياء من حولنا كما كنت أحس ذلك في سير العربة نفسها وفي لهجة السائق وهو يدفع الناس أمامه ويطلب أن يتنحوا له عن الطريق ، أو أن يجنبوا أنفسهم خيله وعربته .

كان الحي رشيماً أنيقاً، وكان الجو سمحاً طلقاً، وكانت الحركات والأصوات من حولي لا تخلو من شدة وعنف، ولكن فيها ظرفاً وتأنقاً، حتى إذا بلغنا شارع محمد علي ضاقت الطريق واشتد أماننا الزحام وكثر من حولنا الصياح، وأخذت أصوات الأطفال ونساء الشعب تختلط بأصوات الرجال من العمال وسائقي عربات النقل، وانتشرت في الجو روائح ثقيلة تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد أخذت تعمل فيهما النار، وارتفع صوت السائق واتصل، وكثر نذيره، وتحذيره وكثر من حوله لوم الناس له وتأنيبهم إياه، وتردد في الهواء هذا الصوت المعروف الذي يحدثه السائقون بأسواطهم حين يأتون بها هذه الحركة التي يرعون بها الخيل وينبهون بها المارة، ثم تنفسح الطريق وتتسع، ويصفو الجو، ويخف الهواء، وتهبداً الحركة، ويتنفس السائق مطمئناً، وتمشي الخيل رقيقة، ولكن ذلك لا يطول إلا ريثما تنعطف العربة ذات

اليمين ، وإذا نحن في حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء
وفسد فيها الجو وكثرت في أرضها الأخاديد فالعربة تقفز
بنا قفزا والسائق يهز سوطه في الهواء ويحذر وينذر في
هدوء ورضى ، ويدعو ذلك بعض النوافذ إلى أن تفتح ،
ويشير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم أو من
أوكارهم يبيتون بالسائق ، ومنهم من يتعلق بالعربة ثم
ينصرف عنها ، ونحن نضحك من هذا كله ونضحك من
السائق خاصة وهو ينظر أمامه ويلتفت ورائه ويضرب
الهواء بسوطه ويطلق لسانه بألفاظ ترق حتى تبلغ المداعبة
الحلوة ، وتغلظ حتى تصل إلى الشتم القبيح ، وكل ذلك
يصل إلى نفسي فيحدث فيها آثارا مختلفة ، ولكنها على
اختلافها تتفق في شيء واحد هو الطرافة لأنني لم أكن
تعودت ركوب العربات ، ثم يقف السائق فجأة ونزل من
العربة ، وإذا صاحبي يقول لي لم نبلغ البيت بعد ، ولكننا
انتهينا إلى حيث لا تستطيع العربة أن تمضي ، فهل تعودت

التصعيد والرقي في الجبل ، فأنا لا أحب أن أسكن في السهل المنبسط فأكون كغيري من الناس ، وإنما أحب أن أشرف على القاهرة وأن أخيل إلى نفسي أنني لست منغمساً فيها وأناي أدخلها إذا غدوت إلى عملي مع الصبح وأخرج منها إذا رحت إلى بيتي مع الليل ، ولست أخفي عليك أنني أجد لذة قوية حين أدخل المدينة مع النهار هابطاً إليها من هذه الربوة كأني أغزوها وأسقط عليها سقوط النسر على فريسته ، وأجد لذة أخرى ليست أقل من تلك اللذة قوية حين أمضي النهار كله في المدينة مضطرباً مع الناس فيما يضطربون فيه من عمل ، خائضاً مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث ، مشاركاً للناس فيما يأتون من خير وشر ، نافعاً ضاراً منتفعاً محتملاً للضرر ، حتى إذا كان المساء ضقت بهم وضاقوا بي وأويت إلى جامعكم هذه الجديدة أريح نفسي بما اسمع من كلام فيه الممتع وفيه السخيف ، ولكنه على كل حال ليس بذى غناء ، حتى إذا أخذت

بحظي من هذه الراحة الأولى رحت إلى بيتي فلا تسل عن
هذا الشعور العذب الذي ينبسط على قلبي شيئاً فشيئاً ،
كلما دنوت من هذا المكان أحس كأني أنسل من المدينة
وأتحفف من أثقالها وألقي آثامها من ورائي وأطهر جسمي
ونفسي من أوضارها وأدرانها حتى إذا رقيت هذه الربوة
وبلغت قممتها هذه (وكنت قد أحسست الجهد من الصعيد
في طريق عالية ملتوية) وقفت وقفة من كان في مكروه
فخلص منه ، وأرسلت زفرة يخيل ألي أنها تحمل بقية ما
علق بنفسي من شر المدينة ، ثم تنفست ملء رئتي مرة ومرة
ثم أقبلت هادئاً مطمئناً قصير الخطى إلى هذا الباب . وهنا
وقف ودق الباب دقتين ففتح لنا ثم أغلق من دوننا .

قصة فيلسوف عاشق

لا أعلم أن الفلسفة تحظر الحب على أهلها، بل الذي أعلمه أن الفلسفة حب كلها. وليس اسمها إلا لفظاً من ألفاظ الحب؛ ولكن هذا الحب إذا احتل قلباً شغله عن كل شيء واستأثر بكل ما فيه من قوة وعاطفة وهوى، ولم يدع من ذلك للحياة اليومية العاملة إلا شيئاً يسيراً جداً.

فالفلسفة حب الحكمة، وهذه الحكمة شديدة الغيرة، شديدة الاثرة، لا تحب الشركة ولا ترضأها، ولا تسمح لعشاقها بأن يصفوا بودهم شيئاً أو أحداً غيرها. فمن فعل ذلك أو شيئاً منه، فليس هو من الحكمة في شيء؛ وإنما هو رجل مثلي ومثلك يغشى الأنديّة، ويضطرب في الشوارع، ويعيش مع الناس، وليس له حظ من المدينة الفاضلة التي يسكنها ويسيطر عليها عشاق الحكمة وحدهم.

لذلك كان أمر هذا الفيلسوف الذي أحدثك عنه عجباً
من العجب ، وفنا من هذه الفنون النادرة التي لا يظفر بها
المؤرخون والقصاص الا في مشقة وعسر ، وإلا على أن
تفرق بينها القرون الطويلة والعصور البعيدة . والذي
أعرفه أن التاريخ لم يظفر قبل فيلسوفي هذا العظيم بعاشق
قد دلته الحكمة ، وعبت بلبه جمال ألتهها العليا ؛ ولكنه
على ذلك استطاع أن يشغف بآلهة أخرى يشركها مع هذه
الآلهة التي كان يصورها اليونان في صورة أثينا ، تلك التي
خرجت من رأس أبيها زوس ، تامة الخلق ، مكتملة
الشباب ، فيها جمال فتان ؛ ولكن فتنه تحلب بقوتها لا
برقتها .

لم يعرف التاريخ عاشقاً من عشاق أثينا استطاع كما
استطاع فيلسوفي العظيم ، أن يشرك معها امرأة من النساء
في حبه وهيامه ، وأن يختصها من هذا الحب والهيام بمثل ما
اختص به آلهة الحكمة نفسها ، وأن ينتهي به الأمر إلى أن

يخلط ابنة زوس بابنة بايس ، ويتخذ منهما شخصاً واحداً يحبه ويقدسه ، ويصوغ له ديناً قويا خصباً ، ويحاول أن يبسط سلطان هذا الدين على الإنسانية كلها ، أو على الإنسانية المسيحية على أقل تقدير .

أظنك قد عرفت هذا الفيلسوف ، فهو (أغست كونت) مؤسس الفلسفة الوضعية ، وواضع علم الاجتماع ، وصاحب السلطان العظيم على العقل الفرنسي ، ثم الأوربي ، ثم الأمريكي ، عصراً طويلاً من القرن التاسع عشر . وأظنك قد عرفت هذه المرأة التي زاحمت الفلسفة في قلب (أغست كونت) فكادت تغلبها عليه ، أو غلبتها عليه بالفعل ؛ ثم أصبحت إلهة للفيلسوف يعبدها كما يعبد النصراني المسيح ، وكما كان الوثنيون من اليونان يعبدون أثينا أو أرتميس . ثم أصبحت إلهة لجماعة من تلاميذ الفيلسوف المتفرقين في أطراف الأرض ، ثم أقيم لها معبد لا يزال يحج إليه إلى الآن في بايس ، وأقيمت لها معابد

متفرقة في أمريكا الجنوبية . حيث لا يزال للفيلسوف اتباع
يشايعونه في القسم المتطرف من فلسفته .

هذه المرأة هي (كلوتلد دي فو) وأظنك تطمئن الآن
وقد سمعت هين الاسمين ، الا أنني لا اخترع ولا اتبع
الخيال ، ولا أضع قصة ؛ وإنما أكتب فصلا من فصول
التاريخ . وليس من الضروري أن يلجأ الكاتب إلى الخيال
والاختراع ، ليستطيع أن يمتع قراءه ، وأن يؤثر في نفوسهم
ويثير فيها هذه العواطف الحادة المختلفة التي تعبت بها
حين تحس لذة أو المأ ، وحين تجد حبا أو بغضا ، وحين
تشعر بحزن أو سرور . فقد تكون الحقائق الواقعة أبرع
وأروع من أحسن القصص الخيالية وأبدعها . ولكنني في
حاجة إلى أن أقدم إليك شخص هذين العاشقين قبل أن
أحدثك عن عشقهما ، وأقص عليك ما كان بينهما من
غرام .

نشأ أغست كونت مع القرن التاسع عشر ، ولم يكد
يتوسط العقد الثاني من عمره حتى ظهر تفوقه في العلوم
الرياضية ، ولم تكد تتقدم به السن قليلا حتى عرف له هذا
التفوق ، وإذا هو حجة في هذه العلوم ، وإذا هو لا يقف
عندها ولا يقتصر عليها ؛ وإنما يفكر في الصلة بينها وبين
بقية أنواع المعرفة الإنسانية من جهة ، ويفكر من جهة
أخرى في الحياة الأوربية المضطربة بعد الثورة
والإمبراطورية ، فيحاول أن يضع ترتيباً جديداً للعلوم ،
ويوفق إلى ما يريد ، ويحاول أن يجد نظاماً جديداً تقوم عليه
الحياة الأوربية ، فيوفق أيضاً ، ويصبح لهذين النوعين من
التوفيق صاحب الفلسفة الوضعية ومؤسس علم
الاجتماع .

ولكن فلسفته الوضعية هذه ، كانت حديثة نائرة لا
تستأثر بالقلوب استئثاراً مطلقاً ، ولا تقطع على أهلها
سبيل الحياة . فسمحت لعاشقها (أغست كونت) أن

يعيش كما يعيش الناس ، وأن يحب كما يحبون . فعاش وأحب . ولكن أي عيشة وأي حب؟ تركت الفلسفة قلبه حرا ، وشغلت عقله كله ، فاختر في الحب بحسه وقلبه ، ولم يختر بعقله ، فيا بئس ما اختار! اختار امرأة جشمته الأهوال ، وعلمته كيف تحمل الآلام ، وكيف يتجرع الإنسان مرارة الغيظ : كانت هلوكا فاجرة . وخيل إلى (أغست كونت) أنها نقية طاهرة ، فأحبها وأظهرت له الحب ، وخطبها فقبلت الخطبة ، وتزوجها فقبلت الزواج . وما هو الا وقت قصير حتى تبين من أمرها ما كره . فخاصمها وقاومته ، وأنذرها فازدرت ، وحاول أن يعاقبها فثارت به ، وصبر الرجل فصابر حتى جن . وإذا هو يلقي نفسه في النار ، وإذا الشرطة تستنقذه وتدفعه إلى المستشفى ، فيقيم مع المجانين حيناً ثم يفيق فيستأنف الفلسفة ، ويستأنف التعليم ، ويستأنف الحب والعذاب . ويجن مرة أخرى ، ويفيق وتنقطع الصلة بينه وبين امرأته في غير

طلاق ، لأن القوانين الفرنسية لم تكن تبيح الطلاق يومئذ .
فنشاطه إذا موقوف على الفلسفة والتعليم .

وفي سنة ١٨٤٠ كان فيلسوفنا ممتحنا في مدرسة الهندسة
وكان بين الشباب الذين تقدموا إليه في هذا الامتحان غلام
في الخامسة عشرة من عمره ، هو (مكسيمليان ماري) . رآه
الأستاذ الفيلسوف وسأله ، فأحبه وأعجب به ، ورأى أن
الخير في ألا يقبله هذا العام . فأجله سنة ثم قبله بعد ذلك ،
واتصلت بين الأستاذ وتلميذه محبة لن تلبث أن بلغت
أقصاها ، وإذا الفتى يميل إلى أستاذه وفلسفته وإلى الحرية
خاصة ، وإذا هو يستقيل من المدرسة ويتبع الأستاذ
ويتلمذ له ويعيش من التعليم في المدارس الحرة على كره
من أبيه . وفي سنة ١٨٤٤ يتزوج هذا الفتى ويعيش مع
امرأته في بيت الأسرة ، حيث يزوره الأستاذ من حين إلى
حين ، وهناك يلقي أخته (كلوتيلد) فلا يكاد يسمعها
ويتحدث إليها ، حتى تبتدىء بينه وبينها قصة الغرام .

وكانت كلوتيلد هذه في الرابعة والعشرين من عمرها ولكن حياتها كانت ممتلئة بالخطوب . كان أبوها رجلا من الطبقة الوسطى ، عمل في جيش الإمبراطورية وارتقى في آخر عهد الإمبراطور إلى رتبة الكابتن ، ثم سقطت الإمبراطورية فأحيل إلى الاستيداع ، وعاش من مرتبه العسكري الضئيل . وكانت أم الفتاة من أسرة شريفة من أهل اللورين ، فنشأت (كلوتيلد) نشأة فيها بؤس وضيق ؛ ولكن فيها احتفاظا شديداً بتقاليد الطبقة الوسطى ، ولم تكد تتجاوز الخامسة عشرة حتى زوجت من رجل يحمل اسما من أسماء الأشراف . ولكن حظه من الشرف كان قليلا ، وهو (ميودي فو) . اقترن بالفتاة وعين جانياً للضرائب ، وقضى مع امرأته أعواماً لا هو بالسعيد ولا هو بالذي يمنح امرأته قسطاً من السعادة . ثم أصبح الناس ذات يوم ، وإذا هو قد هب إلى سفر مجهول ، وما هي الا أن يبحث عنه ويفتش عن أمره ، حتى يظهر أنه قد بدد أموال

الدولة، وشيئاً كثيراً من أموال الناس في اللعب، ثم هرب من فرنسا، إلى حيث لم يعرف من أمره شيء.

فظلت هذه المرأة الشابة معلقة، لا هي بالمتزوجة، ولا هي بالمطلقة، محزونة، بائسة، لا أمل لها في الحياة. عادت إلى أسرتها تعيش بينها، وعكفت على نفسها تعيد وتبدي ما يجول فيها من خواطر الألم والحزن، ثم أخذت تكتب ما تحس وتقيّد ما تجد، وإذا هي كاتبة لها حظ من أدب ونصيب من خيال. وكان جمالها معتدلاً لا إسراف فيه. وكانت المحنة قد أفادتها رصانة ورزانة، وأفاضت على شخصها شيئاً من الحب يعطف النفوس عليها، وأجرت في حديثها شيئاً من العذوبة الحلوة الهادئة، يجيبها إلى القلوب.

فلما لقيها الفيلسوف في بعض زياراته لأخيها، نظر إليها فلم تكذب بلغ نفسه، ونظرت هي إليه فأنكرته وأكبرته. أنكرت شكله الدميم، وصورته القبيحة،

وخلقه المضطرب المرتبك ، وأنكرت صوته الغليظ ،
وحديثه المتكلف . ولكنها أعجبت بذكائه ، وأكبرت عقله
وفلسفته ، وسكتت عنه ، وسكت عنها . واتصلت
الزيارات ، واتصل اللقاء . وأخذت نظرات الفيلسوف
تستقر على الفتاة ، وأخذت أذن الفتاة تطمئن إلى حديث
الفيلسوف ، ولكن أحداً منهما لم يشعر بأن صاحبه قد
وقع من نفسه موقعاً خاصاً .

كان الفيلسوف يزور الأسرة ثلاث مرات في الأسبوع ،
وكان يجد لذة ودعة في هذه الزيارة ، كان يلقي ثلاثاً من
النساء : أم تلميذه وكانت مشغوفة بالتصوير ، تحاول دائماً
أن تصور الفيلسوف ، وزوج تلميذه وكانت موسيقية
تطربه بالتوقيع على البيانو ، وكلوتيلد أخت تلميذه
وكانت أديبة تحدثه عن الأدب وعن قصتها التي أنشأتها
وسميتها (لوس) ورمزت فيها لحياتها الخاصة ، وربما
أنشدته شيئاً من شعرها . ولم يكن الفيلسوف يحب الأدب

ولا يحفل بالشعر ، ولكنه كان يجد لذة في أدب كلوتيلد ،
ويذوق الجمال في شعرها وإن لم يكن هذا الشعر جميلاً ،
وإن لم يكن مستقيم الوزن أحياناً . وكان الفيلسوف
يتحدث إلى كلوتيلد عن فلسفته الوضعية ، وعن مجلداته
الخمس التي ظهرت تذيع هذه الفلسفة في الناس ، وعن
أنصاره وخصومه ، وعن دروسه في الفلك . وكانت الفتاة
تعجب بهذا كله ، وإن لم تكن بطبعها مشغوفة بالفلسفة .
وكان الفيلسوف يلتبس إرضاءها والتقرب إليها على غير
شعور منه ، فيذكر لها براعة النساء في الأدب والفلسفة ،
وكان هذا الحديث يروقها ويتملق كبرياءها ، وكانت الفتاة
تكبر في نفسها حين ترى الفيلسوف قد رآها لثقته أهلاً .
وذات يوم سقطت على الفيلسوف من السماء سعادة لم
يكن يقدرها ولا ينتظرها ولا يحسب لها حساباً . زاره
تلميذه ومعه أخته ، وكان الفيلسوف في جماعة من
العلماء ، وكان الحديث علمياً عميقاً ، فابتهج الفيلسوف

وأعجبت الفتاة، وجلست تسمع في إكبار وتثاؤب خفيف
لحديث العلماء، ثم همت تريد أن تنصرف فجمع
الفيلسوف شجاعته كلها في يديه واستأذن الفتاة في أن
يزورها في بيتها الخاص، فأذنت. هنالك بدأت الخصومة
بين آلهة الفلسفة وآلهة الجمال. هنالك اضطرب (أغست
كونت) بين العقل والقلب، وبين التفكير والحب. هنالك
أخذ الفيلسوف يسأل نفسه: ما قيمة هذا العلم الخالص
الجاف؟ وما قيمة هذا التفكير العميق العقيم؟ ومتى كان
الرجل رجلاً بعقله دون قلبه؟ ومتى كان الإنسان أنساناً
بالتفكير دون الحب؟ إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر في كل
وقت، ولكنه يستطيع أن يحب دائماً. وإذا فقد تكون آلهة
الفلسفة مسرقة في الطغيان، وقد يكون من الممكن أن يتخذ
(أغست كونت) رأسه معبداً لأثينا وقلبه معبداً لكلوتيلد.
وابتدأت زيارة الفيلسوف للفتاة في بيتها. وإذا الحب
يعلن، وإذا الفيلسوف يلح في حبه ويسلك إلى إقناع الفتاة

بهذا الحب طرماً، منها الملتوي، ومنها المستقيم. ولكن كلوتيلدا لا تحب ولا تهوى، إنما تعجب وتكبر، فهي تترده عنها في رفق، وتطلب إليه مودته دون حبه، فلا يكاد يعرف منها هذا حتى يضيق بنفسه وبالحياة، وحتى تضيق به حصته، ويعجز جسمه ورأسه عن احتمال هذا الخذلان، فهو مريض يلجأ إلى السرير أياماً، وهو مشفق أن يعاوده جنونه القديم، على أنه يبل من مرضه، ويحاول أن يجدد عهده بالفتاة، ولكنها تحظر عليه زيارتها في بيتها، وتعهده باللقاء عند أمها مرتين في الأسبوع، فلا يكفيه ذلك، فتعهده بلقائه مرة ثالثة، فلا يكفيه ذلك أيضاً، وتتصل بينهما كتب فيها حوار حلو ملؤه الحنان حين يصدر عن الفتاة، عنيف معوج ملؤه الفلسفة حين يصدر عن الأستاذ، ثم يستحيل هذا الحب في نفس الفيلسوف إلى شكل جديد، فليس هو حباً عادياً كهذا الذي يكون بين

الناس ، وإنما هو التقاء شخصين عظيمين قد خلقا ليلتقيا
ثم ليتعاونوا على إصلاح الإنسانية وإنهاضها .

هي إذن قد خلقت له ولن يدعها ولن يتخذ غيرها
زوجاً ، إذا ماتت زوجه النائية ، ثم تستحيل هذه العواطف
ويستحيل هذا التفكير إلى فن من الفلسفة ، يضعه (أغست
كونت) في رسالة ، ويهدي الرسالة إلى الفتاة بهذا العنوان :
(رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي) . في هذه الرسالة
يتغير رأي (أغست كونت) في المرأة ومكانتها الاجتماعية
تغيراً تاماً . فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه (ستوارت
ميل) فيرى أن ليس في المرأة أمل ولا خير ، أما الآن فهو
يرى المرأة عنصراً أساسياً في الإصلاح الاجتماعي الذي
وقف نفسه عليه ، وقد سرت الفتاة بهذه الهدية ، وكبرت
في نفسها فزارت الفيلسوف مع أمها شاكراً له .

هنالك نشط الأمل وتجددت الحياة ، واعتقد الفيلسوف
أنه سعيد . واستأنف إلحاحه على الفتاة ، واستأنفت الفتاة

مدافعتة عن نفسها ، واحتالت في ذلك حتى زعمت له أنها قد أحبت من قبله فتى كان لحبها أهلا ، وأحبها الفتى وسعد بهذا الحب ؛ ولكن لم يجدا إلى الزواج سبيلا ، لأن الفتى كان معلقا مثلها يخاصم امرأته ولا يستطيع لها فراقا ، فبيئت من الحب والسعادة ، وأزمعت أن تنصرف عن لذات الحياة أبدا . ولكن الفيلسوف مغرم ، والغرام لا يعرف اليأس ، وهو إذا كان صحيحاً قويا قد يتحول ويتشكل ، ولكنه لا يزول . وما الذي يمنع غرام كونت أن يتخذ شكلا فلسفيا ولو إلى حين . لقد كان عود نفسه الحرمان منذ دهر طويل ، فألغى القهوة منذ عشرين سنة ، وترك التدخين منذ عشر سنين ، ثم ألغى النبيذ ثم ألغى الفاكهة ، ثم اتخذ ميزانا يزن به ما يلائم حاجة جسمه من الطعام الخشن ، وكان ربما يكتفي بالكسرة من الخبز يتبلغ بها ، وهو يفكر في إخوانه من الناس الذين قد لا يظفرون بمثلها . وما دام قد سيطر على نفسه إلى هذا الحد ، وعودها

هذا الحرمان في الطعام والشراب ، فما له لا يزيد هذه السيطرة وما له لا يعود نفسه الحرمان لا في الحب بل في لذات الحب . إذا فليبق حبه قويا حارا ؛ ولكن ليظل هذا الحب نقيا طاهرا مجدبا من كل لذة ، وليتظر ، وليجنب اليأس ، فكل شيء يدني الفتاة منه ، وكل شيء يدنيه من الفتاة . لقد أصبحت زميلة له منذ نشرت بعض الصحف السيارة لها قصتها التي وضعتها عن نفسها فأصبحت كاتبة مثله تتحدث إلى الناس في الأدب كما يتحدث هو إلى الناس في الفلسفة . هما إذا زميلان ، بل هما أكثر من زميلين ؛ فقد أخذت الفتاة تدنو من مذهبه في الفلسفة ، وتحس ميلا إلى آرائه الاجتماعية ، وتكون منه مكان التلميذ والنصير . فليحب إذا وليصبر ، وفي أثناء ذلك كانت أم الفتاة تقول لها : لولا أن مسيو كونت قبيح دميم لقلت أنه يتملقك ويدور حولك كما يدور العاشقون حول من يحبون ، ومع ذلك فإن من الحق عليه لك ولنفسه أن يفكر

في أن هذه الزيارات المتصلة المنظمة ، لا تليق بك ولا به
لأنها تخالف العرف المألوف أشد الخلاف .

بين بين

الأصل في الكلام إنه وسيلة تتوسل به إلى الأعراب عما تريد أن يفهمه عنك غيرك ، فهماً واضحاً جلياً لا لبس فيه ولا غموض . والكلام كله يشترك في هذا الأصل أو قل كان يشترك في هذا الأصل سواء منه ما كان شعراً وما كان نثراً ، وسواء منه ما تحدث إلى العقل وما تحدث إلى القلب والشعور . فإذا خرج الكلام عن أصل البيان والتبيين هذا فكان فيه غموض أو التواء فمصدر ذلك قصور في المتكلم أو الكاتب أو قصور في السامع أو القارئ ، عجز ذاك فلم يحسن الإعراب عما يريد ، أو عجز هذا فلم يحسن الفهم لما لقي إليه . وقد يكون الغموض مقصوداً والالتواء متعمداً ، لأن للكاتب أو الشاعر أو المتكلم غرضاً يدفعه إلى أن يتكلف الغموض ويتعمد الالتواء ولكن هذا الكلام

الغامض المتلوي واجد على كل حال من يقرأه أو يسمعه
يفهمه فهماً صحيحاً مستقيماً .

هذا هو الأصل في الكلام ولكن يظهر أن الترف الفني
الذي ترقى بنا الحضارة إليه ، وتنتقل بنا في درجاته المختلفة
يأبى أن يقر الأشياء في أصولها أو يدعها ميسرة لما خلقت
له . فكما أن الأصل في الطعام والشراب الغذاء والري ،
ولكن الحضارة والترف قد خرجا بهما عن هذا الأصل إلى
ما يتجاوز الغذاء والري ، إلى غيرهما من اللذات التي
يجدها الطاعمون والشاربون فقد خرج الترف الفني في هذه
الأيام بالكلام عن أصله المألوف إلى شيء آخر غير البيان
والتبيين ، ونشأت طائفة من الكتاب والشعراء لا تكتب
النثر ولا تقرض الشعر لتقول شيئاً واضحاً جلياً أو لتقول
شيئاً ينتهي بعد الجهد والبناء إلى الوضوح والجلاء . وإنما
تكتب وتنظم لتثير في نفسك ألواناً من المعاني وضروباً من
الخواطر ، ولتهيج في قلبك أشكالا من العواطف وفنوناً من

الشعور ، تحسها فتلذذ لها وتألم ، وتبتهج لها وتضيق بها ،
وتفهمها حيناً وتعجز عن فهمها أحياناً ، وتذهب مذاهب
مقيدة غريبة متباينة في فهم هذا الكلام الذي يلقي إليك
وتأويله وتخرجه فتقر ما تنتهي إليه ثم يبدو لك فتعدل عنه ،
ثم تقرأ هذا الكلام مرةً أخرى فإذا أنت تذهب في فهمه
وتأويله وتخرجه مذاهب لم تكن قد ذهبتها من قبل ، ثم
تحدث إلى من قرأ هذا الكلام نفسه فإذا هو يخالفك في
الفهم كل الخلاف أو يخالفك في بعضه ويوافقك في بعضه
الآخر . ثم تتحدثان إلى ثالث قد قرأ هذا الكلام فإذا له فيه
رأي لم ترياه ولم يخطر لكما على بال ولعلكم إن سألتم
الكاتب أو الشاعر الذي ألقى إليكم وإلى الناس هذا الكلام
عما أراد به حين كتبه أو نظمه لم تجدوا منه جواباً مقنعاً ولا
رداً مريحاً . أو وجدتم أجوبة مختلفة وردوداً متباينة ، لأنه
هو لا يعرف بالضبط ماذا أراد حين كتب أو نظم أو كان
يعرفه أثناء الكتابة والنظم ثم ذهب عنه بعد ذلك ، أو كان

يعرفه فلما أتم الكتابة والنظم وترك ما كتب ونظم حيناً عاد إليه يقرأه فإذا هو يفهم منه غير ما أراد ويتبين منه غير ما كان قد قصد إليه .

وقد يخطر لك أنني أقصد بهذا النحو الكلام إلى شيء من العبث أو الدعابة ، فزد عن نفسك هذا الخاطر فلست بصاحب عبث ولا دعابة . وإنما أنا صاحب جد كل الجد وأنا أكتب هذا الكلام بعد أن فرغت من قراءة قصة لذينة قيمة ممتعة للكاتب الفرنسي جورودو . صاغها في صيغة القصص التمثيلي ووضع لها العنوان الذي وضعته أن لهذا الفصل ، ونشرها في عدد من مجلة باريس .

وقد قلت إن هذه القصة لذينة قيمة ممتعة وأنا أريد ما أقول ، ولعلي مقصر حين أكتفي بهذه الأوصاف وحسبك أنني قرأتها ثلاث مرات وسأقرأها إن أذن بذلك الوقت وسمحت به الظروف . وقد وجدت في كل قراءة لذة ومتاعاً وأنا واثق بأنني سأجد في القراءة الرابعة لذة ومتاعاً .

ولكنني على ذلك كله لم أفهم ما أراد الكاتب أو قل
فهمت أشياء مختلفة وأغراضاً متباينة، ما أظن أن الكاتب
قد أراد إليها أو فكر فيها. وقد أسأت الظن بنفسني فأقرأت
هذه القصة قوماً آخرين وجدوا فيها لذات لم أجدها
ومتاعاً لم أشعر به. ولكنهم كانوا مثلي عاجزين عن أن
يفهموا بالدقة أو بالتقريب ما أراد إليه الكاتب حين كتب
قصته هذه البديعة الغريبة. ثم انتهى بنا الأمر إلى أن اتفقنا
على إن الكاتب لعله لم يرد شيئاً أكثر من أن يثير في نفوسنا
وقلوبنا هذه الخواطر والعواطف وهذه الأهواء والميول.
وعلى أن الكاتب لعله أراد أن يذهب بالكلام مذهب
الموسيقين بالموسيقى، فلا يقصد إلا أن يثير في نفسك
ضروباً من العواطف والأهواء حول فكرة خطرت له
وأثرت فيه فصورها كما استطاع في هذه الألحان التي قد
تطابق ما في نفسه وقد تقصر عنه وقد تتجاوزه وتربى
عليه. ولكنها على كل حال قلما تنقل إلى نفسك صورة

صحيحة مطابقة لما كان في نفسه ، وقلما تثير في النفوس
المختلفة عواطف وأهواء مؤتلفة أو متقاربة تقارباً شديداً .
إنما قصارها أن تدفع بك في عالم من الخيال لا حد له .
فأنت تتصور فيه ما تشاء . وأنت تحس فيه ضرباً متبأينة
من الإحساس وقد تسمع اللحن الموسيقي الآن فيثير في
نفسك لوناً من الخواطر وتسمعه بعد ذلك فيثير في نفسك
لوناً آخر . وكذلك يذهب أصحاب الكلام بالكلام حتى
يجعلوه فناً من النغم وضرباً من الموسيقى ، وحتى
يستطيعوا أن يلقوه إليك فإذا أنت لا تفهم منه شيئاً دقيقاً
جلياً كما تعودت أن تفهم من الكلام . ولكنك على ذلك
لا ترغب عنه ولا تنفر منه بل تؤثره ولا تعدل به شيئاً .

في هذه القصة خداع غريب خطر لأنه يخيل إليك إنك
تفهم ما تقرأ على وجه من وجوه الفهم فتمضي بالقراءة
متابعاً فهمك هذا مطمئناً إليه ، ولكنك لا تلبث أن تضل
الطريق . وإذا أنت في واد غير ذلك الوادي الذي كنت

تمضي فيه . وما يزال كذلك ينقلك من واد إلى واد ويثب بك من مذهب في الفهم إلى مذهب آخر حتى تنتهي القصة . وإذا أنت تسأل نفسك ماذا فهمت أنت منها وماذا أراد الكاتب بها إليه .

ولا بد لي من أن ألخص لك المقدار الذي يستوي الناس جميعاً في فهمه من هذه القصة حين يقرءونها وهو هذه الصورة الظاهرة التي يقسمها الكاتب إلى مناظر وفصول . ولكني أحب أن تفهم أن هذا التلخيص لا يعطي شيئاً ولا يصور ما أراد الكاتب . وقد قرأت لجماعة من النقاد فما أرى إنهم فطنوا لما قصد إليه في دقة ووضوح .

كل شيء في القصة مبهم قد تعمد الكاتب إبهامه ، حتى الأماكن التي تقع فيها حوادث القصة ، والأوقات التي أختارها الكاتب لوقوع هذه الحوادث . فأكثر ما يقصه عليك الكاتب يجري في مكان غير محدود ليس هو داخل المدينة وليس هو شديد البعد منها وكأنه في طرف من

أطرافها حيث تتصل عمارات المدن بالفضاء الواسع
الطلق . وهو في غابة أو في شيء يشبه الغابة ، تبين فيه
الأشجار ولكنك لا تضيق بها ولا تحس كثافتها والتفافها .
والمكان واسع قد كسا أرضه العشب وأنتثر فيه زهر كثير
مختلف . ولا تقع حادثة من حوادث القصة في أول النهار أو
في وسطه حين تستطيع العين أن تحيط بالأشياء وتحقق النظر
فيها وحين تستطيع النفس أن تتابع العين فتفكر في شيء
بين محدود .

وإنما تقع الحوادث في الأصيل حين يختلط آخر النهار
بأول الليل ، وحين يضطرب على الأشياء رداء رقيق جداً
من الضوء ، وحين تتفرق النفس كأنها تريد أن تتابع
الشمس في مسراها من وراء الظلمة الكثيفة المقبلة .

وإذا أختار الكاتب هذا المكان المبهم ، وهذا الوقت
المبهم لم يكن من العسير عليه أن يختار أشخاصاً إن ظهرت
صورهم المادية ظهوراً واضحاً في بعض الأحيان ، فأن

صورهم النفسية وما يصدر عنها من الأحاديث والخواطر
مبهمة شديدة الإبهام ملائمة أشد الملائمة لما يحيط بها من
زمان ومكان . ولعل أحسن مظهر لبراعة الكاتب إنما هو
إنشاء هذه البيئة الغامضة الواضحة المبهمة الجليلة التي هي
بين بين .

موضوع القصة نفسه يقتضي هذا الموقف المتوسط بين
الوضوح والغموض ، فنحن في مدينة صغيرة من مدن
فرنسا كانت هادئة مطمئنة تجري حياة أهلها في اضطراب لا
نتوء فيه كأنه السهل المنبسط . ثم يضطرب أمرها فجأة
وتحدث فيها حوادث غير مألوفة كأن شيطاناً ماكرأ قد
أشرف على أمورها فقلبها رأساً على عقب . تعودت أن
تجول بين أهلها في كل عام طائفة من أوراق (النصيب) .
فإذا جاء موعد القرعة فقد تعودت المدينة أن تخرج القرعة
لأغنى أهلها إلا في هذه السنة فقد خرجت لرجل فقير .
تعودت أن تؤدي عملية الإحصاء من حين إلى حين كما

تؤديها غيرها من المدن فإذا سألت الأسر عن عددها ردت بأجوبة تلائم العرف والقانون إلا في هذا العام ، فالعمدة يستحي أن يقدم إلى المركز أوراق الإحصاء لأن الناس قد أحصوا أنفسهم ، وكلابهم ، وماشيتهم . ولأن الرجال لم يضعوا زوجاتهم في أجوبة الإحصاء ، وإنما وضعوا خليلاتهم . تعودوا أن ينهر الرجل صبيه فلا يثور الصبي ، وأن يزجر كلبه فلا يثور الكلب ، أما في هذا العام فالصبيان ثائرون بآبائهم وأمهاتهم ، والكلاب ثائرة بأصحابها وسادتها . وعلى هذا النحو اضطرب في المدينة كل شيء . ومصدر الاضطراب فيما يظهر أن إشاعة ملأت المدينة بأن شبهاً يظهر لبعض أهلها إذا تولى النهار وأقبل الليل . وقد صدق الناس هذه الإشاعة واطمأنوا إليها فكلهم يلتمس الشبح وكلهم يراه ، وكلهم يخافه ، ويحتاج للقاءه . وانتهى أمر هذا الاضطراب إلى باريس فأرسلت الحكومة المركزية مفتشاً إلى هذه المدينة يبحث ويستقصي ، وأمرته بأن يحسم

الداء إذا انتهى إلى أصله . وفكرة الحكومة أن هذا عارض من الضعف العقلي ومن الشعوذة قد ألم بهذه الدينة ، فيجب أن يرد عنها وأن يسط عليها سلطان العلم والعقل ، ويقبل هذا المفتش ممتلئاً بهذه الفكرة فلا يكاد يتحدث إلى العمدة والصيدلي ومراقب المكايل والموازن حتى يروعه تصديق المدينة لهذه الخرافات ، وحتى يشتد عزمه على أن يشمر في الحرب لهذا السخف حتى يقضي عليه . وهو ينكر وجود الأشباح والأرواح ، وهو يتحدى الأشباح والأرواح ويطلب إليها أن تقلق طائراً ولو يسيراً عن غصن من هذه الأغصان وهو يحصي ثلاثة فلا يتم الإحصاء حتى تسقط قلنسوته عن رأسه ! فيقول : ما أشد الريح أو يجيبه أصحابه : ليس في الجو أثر للنسيم ! وهو يعود إلى التحدي في لفظ غليظ بشع ويطلب إلى الأرواح والأشباح أن تمسه بأذى ولو ضئيل . ويحصي ثلاثة فلا يكاد يفرغ من الإحصاء حتى تزل قدمه به فيهوى ! فإذا نهض

قال : ما أشد الرطوبة! فيجيبه أصحابه ، إن عهدنا بالمطر
لبعيد! وبهذا يتحقق الخلاف بين ممثل الحكومة المركزية
وأهل المدينة . هو صاحب علم وعقل وهم أصحاب خيال
وإيمان بالخرافات .

ولكن علم المفتش أولى وعقله محدود . فهو يؤمن بما في
الكتب ويسلم به مقلداً فيه وهو يرى الإيمان به والتعصب
له سياسة تلائم الديمقراطية وتوافق نظم السياسة الحديثة .
وسداجة أصحابه الذين يحاورهم ظريفة طليقة ليس فيها
غلظ ولا ضيق ، وإنما هي سداجة ذات أجنحة تسمو
بأصحابها حتى تتجاوز بهم حدود المألوف المعقول وكأنها
قد اتخذت أجنحتها من الخيال وأصبحت شعراً كلها ،
فالحوار إذاً إنما هو بين الحقائق الواقعة المقيدة التي لم تبرأ
من الجمود ولم تسلم من القصور ، وبين الخيال المطلق الحر
الذي أخذ بحظ عظيم من الرقي والصفاء والتهذيب .
الحوار إذاً بين الحياة اليومية المألوفة يمثلها شخص المفتش

وبين الشعر يمثله هؤلاء الناس . بل يمثله معهم أكثر أهل المدينة وتمثله معهم بنوع خاص إيزابيل هذه الفتاة التي تقوم على تعليم البنات مكان المعلمة المريضة والتي تذهب في تعليم الفتيات مذهباً غريباً ملائماً كل الملاءمة للطبيعة الحرة والشعر الطلق . فهي لا تضطرنهن إلى المدرسة وإنما تتخذ من الغابات والحقول مدرسة تلقي عليهن فيها علماً غريباً يضيق به المفتش الذي يمثل حياة كل يوم . وهي تلقي إليهن أسماء غريبة تدل بها على ألوان العلم في الفلك والطبيعة والنبات والحيوان وهي لا تتحرج في أن تحملهن على أن يتشكلن بأشكال الحيوانات المختلفة ويتسمين بأسمائها ويسرن سيرتها ، كل تعليمها يمتاز بأنه شعر ، ويقوم على تحبيب الطبيعة إلى التلاميذ . ولا يكاد المفتش يرى هذا ويتبينه حتى ينفر منه ويثور به ويرى إنه أصل هذا السخف الذي سيطر على المدينة ونشر فيها الفساد والاضطراب . فيعزل الفتاة إيزابيل من منصب التعليم ،

ويأمر أن يجري التعليم في المدرسة على ما يجري عليه في المدارس الأخرى في أضيق حدود التقاليد وقد أنبىء بأن مصدر هذه الإشاعة التي اضطربت لها المدينة إنما هو هذه الفتاة المعلمة ، فهي التي ترى الشبح وتناجيه إذا كان المساء ! وقد ثبت له ذلك . فأرصد للفتاة وطائفها ومعه نفر مسلحون حتى إذا كان المساء أقبلت الفتاة وأقبل الطائف فتحدثت إليه وتحدث إليها . وهما في حديثهما وإذا نار تطلق فيهوى الطائف إلى الأرض كما يهوى القليل . ويظهر المفتش وأصحابه وهم لا يشكون في أن هذا الطائف ليس إلا شاباً أراد أن يغوي الفتاة فاتخذ صورة الطائف وشكل الخيال . ويحنو بعضهم على القليل فلا يرى جثة وينظر القوم فإذا الطائف يرتفع في الجو شيئاً فشيئاً حتى يسترد صورته الأولى ثم يقول : إلى غدا يا إيزابيل ! إلى غدا في غرفتك إذا كانت الساعة السادسة !

فإذا كان الغد أقبلت الفتاة إلى غرفتها قرب الموعد المضروب وأقبل مراقب المكاييل والموازين فأخذ يتحدث إليها حديثاً فيه حب ، فتريد أن تصرفه عن نفسها فيأبى ويعرض عليها الزواج ، وهما في الحديث وإذا الطائف قد أقبل وطلب إليه أن ينصرف ويدعه مع الفتاة . ولكن الرجل يأبى ويلح في الإباء ويكون بينه وبين الطائف حوار عنيف دقيق أيهما يستأثر بالفتاة ، والفتاة مترددة بين هذا الرجل الذي يمثل الحياة وهذا الطائف الذي يمثل الموت ولكن ميلها إلى الحياة ينتصر آخر الأمر فينصرف الطائف مهزوماً وتهوى الفتاة في غشية كأنها الموت . ويقبل المفتش والعمدة والصيدلي والتلميذات وبعض أهل المدينة وكلهم يريد أن يستنقذ الفتاة من هذا الإغماء . وكلهم يقترح لذلك دواء وطباً ولكن الصيدلي يتقدم إليهم جميعاً في أن ينسوا الفتاة وينصرفوا إلى أنفسهم . ويستأنف كل منهم حياته في هذه الغرفة كما لو كان بعيداً عنها فهو لاء يلعبون

الورق وهؤلاء الفتيات بينهن حديثاً عادياً ، وهاتان الفتاتان تتحدثان في الأزياء ، وهذا المفتش ينطق من حين إلى حين بألفاظ تمس العلم والتعليم والديمقراطية وقد استحوالت الغرفة صورة مصغرة للمدينة . وإذا الفتاة المغمى عليها تفيق شيئاً فشيئاً حتى تشترك في الحديث عن الأزياء ويأتي من يخبر بأن الأمور قد استقامت فخرجت قرعة النصيب للأغنياء دون الفقراء ، ويعلن الصيدلي في ألفاظ تذكر بقصة فوست أن قد انتهت هذه الحال التي كانت بين بين !

هذه صورة غليظة جداً لهذه القصة لا دقة فيها ولا تحديد ولا إلمام بشيء مما فيها من مواطن الشعر ومظاهر الجمال الفني الرائع . ولا إلمام فيها أيضاً بهذه المواقف الكثيرة التي يعرض فيها الكاتب للحياة اليومية على اختلاف فروعها بالنقد اللاذع المر ، ولكنك تستطيع أن تسأل نفسك كما سألت نفسي وكما سأل غيري من القراء نفسه حين قرأ هذه القصة ، ماذا أراد الكاتب أن يصور

فيها؟ أترأه اكتفى بنقد ما نقد من ألوان الحياة الفرنسية ولم يرد غير ذلك! إلا فإن هذا النقد عارض في القصة يكفي أن تنظر فيه لتعلم إن الكاتب لم يتخذه غرضاً من أغراضه الأولى. أترأه رمز بهذا الطائف إلى شيء مما يعرض للناس في حياتهم وجعل الفتاة رمزاً للناس جميعاً أو لطائفة من الناس؟ ولكن ما عسى أن يكون هذا الشيء الذي أتخذ الطائف رمزاً له أهو الحب؟ أهو الموت؟ أهو الأمل؟ أهو المثل الأعلى؟ أهو شيء غير هذا كله؟ أترأه إنما أراد أن يصور حالاً من أحوال الناس تعرض لهم في طور من أطوار حياتهم حين يكونون بين النوم واليقظة، أو حين يكونون بين الصبا أو الشباب وبين الاكتهال واكتمال السن. أترأه أراد أن يصور لنا حياة فتاة مريضة بنوع من أنواع الأمراض العصبية تتأثر بالوهم وتتبعه حتى تمضي في أثره إلى أمد بعيد ثم لا ترد إلى الحياة الواقعة إلا في هدوء ورفق. وإلا بأن تحيط بها الحياة الواقعة إحاطة متصلة لا

تكلف فيها ولا جهد . كل ذلك ممكن ، ولعل شيئاً غير ذلك كله ممكن أيضاً ولعل الكاتب (وقد هممت أن أُملي الشاعر) لم يرد كما قلت إلا أن يخلق حولك هذه البيئة الشعرية التي تطلقك من قيود الحياة الواقعة وتسلمك إلى الخيال يمضي بك حيث يشاء ساعة من نهار أو ساعة من ليل . وقد ذهب الشعراء إلى هذا النحو من الفن منذ عهد غير قصير ، فمنهم من جعل الشعر موسيقى تلذ السمع أولاً ، وتثير في النفس لذة النغم الموسيقي بعد ذلك وأعرض عن المعاني إعراضاً شديداً أو هيناً . ومنهم من أعرض عن هذه الموسيقى الظاهرة التي يتأثر بها السمع قبل كل شيء واتخذ الشعر مفتاحاً يفتح لك به أبواب اللانهاية كما يقول الشعراء ووسيلة يخلق لك بها هذه البيئة الفنية العليا التي ترتفع بها وقتاً ما عن الحياة والأحياء .

وأخذ الكتاب يذهبون بالثر مذهب الشعراء بالشعر ولكن كاتبنا قد تجاوز مذهب الكتاب الذين يقلدون الشعر

والشعراء في النثر الذي يتجه إلى القراء ليس غير ، وسلك هذا المذهب الشعري بالنثر التمثيلي وبالتمثيل نفسه . وأنت في غير حاجة إلى أن أبين لك الفرق بين النثر الذي يذهب في صاحبه مذهب الشعراء والموسيقين والذي يتجه إلى الناس جميعا ولكنهم يقرءونه متفرقين ويتأثرون به متفرقين ، وبين النثر الذي يذهب به صاحبه هذا المذهب ويتجه به إلى طبقات من الناس يجمعهم في مكان واحد ، هو الملعب وينتزعهم من الحياة الواقعة معا ويسمو بهم معا إلى عالم الشعر والخيال ويتخذ لهذا سبيلا واحدا هو التمثيل . وأظنك توافقني على أن هذا النوع من الإقدام والابتكار جراءة فنية قيمة . ولكن قد رأينا الآثار التي تركها قراءة هذه القصة في نفس القراء ولم نحسب أن نرى الآثار التي تركها تمثيل هذه القصة في نفس النظرة . ولكن أين نحن من هذا وأين هذا منا في مصر الآن؟

وأنا أريد أن اعرض عليك منظر من مناظر هذه القصة
لم اختره اختياراً وإنما هو كغيره من المناظر التي تستحق
كلها أن تترجم وأن تتخذ نموذجاً ومثلاً لهذه الفن التمثيلي
الجديد . وهذا المنظر حوار بين إيزابيل وبين الطائف :
الطائف - أكنت تنتظريني؟

إيزابيل - لا تعتذر! فلو كنت طائفاً مثلك لوقفت عند
هذا الشفق وعند هذه الأودية ، حيث لم أستطع إلى الآن أن
أحمل الا جسماً كثيفاً . إذأً لاستوقفتني الغدران والنبات
الملتف وكل ما أقف عنده الآن! إذأً لما كنت هنا الآن لو أنني
أستطيع مثلك أن أطوف بظلي كما لا أستطيع الا أن أمسه
أو أراه! إذأً لاتخذت لنفسى جسماً من الأشياء كما أهوى
عصفوراً على الغصن مرة! أو طفلاً مرة أخرى! أو انحرف
مرة ثالثة فأقمص عوداً مزهراً من النسرين . إنما الاحتواء
هو القرب الصحيح . . . ولكنى ألومك لأنك أقبلت هذا

المساء وحدك، وحدك دائماً. لم تستطع أن تمس أحداً من
ذويك ولا أن تحمله على صحبتك!
الطائف: لم أستطع.

إيزابيل: لقد فكرنا أمس بعد كل هذا الإخفاق أن أقدر
الأشياء على أن يهيجهم، ويؤثر فيهم، ويوقظ ما يمكن أن
يكون أعصاب الطيف، قد يكون صيحة طويلة، وشكوى
متصلة متشابهة، تتردد في طول واتصال. كهذه الصيحة
الحقيقية أو التي نحلم بها والتي تصدر عن القطار فتوقظنا
أحياناً مع الفجر وتردنا إلى الأحياء. أو كصيحة سفينة
أثناء الليل في الخليجان، تلك الصيحة التي تبلغ حتى
الأسماك الرخوة في القاع. أبعثت هذه الصيحة؟ أنفقت
يقظتك في بعثها؟

الطائف: نعم!

إيزابيل: أنت بنفسك؟ أنت وحدك؟ ولم تلحق
بصوتك شيئاً فشيئاً آلاف من أصوات تشبهه. .

الطائف : لقد اصطدمت بنوم الموتى .

إيزابيل : أينامون؟

الطائف : أأكون هذا نوما؟ لقد تسود أكثر الأحيان حيث يجتمعون رعشة ، ثم ينساب فيهم نشاط جديد ، حتى لقد ينبعث منه شيء يشبه الصوت أو انعكاس الضوء فإذا أقبل عليهم الطارقون المحدثون انغمسوا في اضطراب لذيذ تهدأ له بقية حياتهم يهزهم دائما ترجح الأرض الخفيفة . ولكن ربما اتصلت جماعتهم كلها ، فكأنها قطعة من الثلج قد غمرها نوم الشتاء فإذا هبط إليها الموتى الوافدون غرقوا فيها مع شعاع يرافقهم ، لأن نوم الأحياء شمس وبهجة .

إيزابيل : أكانوا كذلك أمس؟ أي فصل ذلك زمنا

طويلا؟

الطائف : قرونا . . ثواني

إيزابيل : أليس من أمل في المعونة؟

الطائف : منهم ، لا أظن .

إيزابيل : لا تقل هذا! إن بين الذين قضوا من حولي من أحسست أنهم قد ذهبوا إلى غير رجعة ومحت أشخاصهم من كل حياة ومن كل موت . لقد أرسلتهم على العدم كما أرسل الحجر . ولكن بينهم من وجهتهم إلى الموت كأنما وجهتهم في مهمة ، أو كأنما كلفتهم محاولة ، يظهر الموت فيها وكأنه أقصى غايات الثقة . فكان يضطرب حول المقابر جو السفر والأماكن المجهولة . ولم اكن أميل إلى أن أودعهم باللفظ بل بالإشارة . وكنت أحس أثناء المساء كله كأنهم يبحثون عن إقليم جديد وعن بيئة جديدة . وكانت الشمس مشرقة ، وكنت أراهم هناك ينامون في شمسهم الجديدة . وكان المطر يسقط وكانوا يتلقون القطرات الأولى من أمطار الجحيم . فلن تقنعني بأن هؤلاء أيضا ينسون أو يسقطون متى انتهوا إلى مستقرهم؟

الطائف : لم يصلوا لم أرهم .

إيزابيل : ولكنك أنت نفسك تلقي السلاح ؟ وتكتفي
من الأمل والرغبة بأن تهيم طائفا فوق مدينة ضئيلة ؟
الطائف : المهمة خطيرة .

إيزابيل : ومع ذلك فهذا أنت ذا .
الطائف : إن بين الموتى من ينام وكأنه يقظان .
إيزابيل : إن هذا النائم المستيقظ يستخفي مع الصباح
وما زلت مقيما .

الطائف : لقد جذبتني . لقد أوقعتنني في الشراك .
إيزابيل : أي شراك ؟
الطائف : إن عندك لشركا يجذب إليه الموتى .
إيزابيل : وأنت أيضا تراني ساحرة .

الطائف : إن سحرك لطبيعي حتى لكأنك قد عرفت
فيم يفكر الموتى فأنت لا تهيين لهم ذكريات ولا صورا
وإنما تهيين لهم الشعور بانعكاس الصور وأجزاء الضوء
قد استقر على زاوية من الموقد ، على أنف هر ، أو على

ورقة كأنها الحطام الضئيل يطفو على الطوفان

أترينني مصيبا؟

إيزابيل : وإذا؟

الطائف : وإذا فكل غرفتك في الظاهر غرفة للأحياء ،
لفتاة حية من أهل الأقاليم ، ولكن من يحقق فيها النظر
يرى أن كل شيء قد قدر لتكون هذه العلامة من الضوء
على الأشياء المألوفة على إناء من الصيني أو مقبض من
المقابض قد استبقى دائما بالشمس أو النار في النهار ،
وبالمصباح أو القمر في الليل . هذه هي حباتك وقد كان
حقا علي أن احتاط حين رأيته في نافذتك ذات مساء . لم
يكن وجهك المشرق هو الخطر . ولكنني رأيت انعكاس
اللهب على الحاجز أمام الموقد . ورأيت ضوء القمر على
المنبه . ورأيت ماس الظلال . فأخذت !
إيزابيل : أأخذك الشرك فمن أبقاك؟

الطائف : صوتك قبل كل شيء أحاديث صوتك هذه
التي تجعل في الشفق كل مساء شيئاً تهيم به الظلال يشبه ما
يرى الناس إن الطير تحبه من الشمس! وأبقاني بنوع خاص
هذه الثقة الكريمة التي تمنعك حتى من أن تفكري في أنني قد
خدعتك وأني حي .
ثم تطلق النار فيهوى الطيف!

من طه إلى هيكل

أخي العزيز :

قرأت كتابك الممتع الذي تنشره الرسالة اليوم وستشره السياسة بعد غد وسيقرؤه الناس مرتين ، فأذن لي في أن أشكر لك هذا الكتاب أجمل الشكر لأنه راقني ، وأثار في نفسي من حبك ، والإعجاب الشديد ببراعتك ولباقتك ، ما تثيره آثارك الأدبية كلها في نفسي حين أقرأها ، وأذن حقاً لي في أن أعود فأثني عليك لأنني لن أتعب من الثناء عليك ، ولن يعينني أن أدهشك أو أخجلك ، وإنما تعودت أن أقول الحق سواء عليّ إرضائك حتى أنتهي بك إلى الخجل ، أم أسخطك حتى أنتهي بك إلى الثورة ، أو إلى غضب هادئ فيه مكر ، هو أشد من الثورة وأحدث ، فإخجل يا صديقي ما وسعك الخجل ، وادهش يا صديقي ما وسعك الدهش ، واغضب يا صديقي ما استطعت

احتمال الغضب، فأنت كاتب بارع، وأديب فذ كثير
الانتاج كأنك الجني، قد أخذت تحب الإعلان بعض
الشيء في هذه الأيام حتى أنك لتتشر ردك عليّ مرتين.
وفيك إسراع إلى الحكم وفتور عن البحث ورغبة عن
الاستقصاء تضطرك أحياناً إلى الخطأ وتصرفك أحياناً عن
الحق. وفي أسلوبك الرائع البارع وبيانك الفائق الرائق
شيء من الضعف يقربه أحياناً من الابتذال. ويخيل إلي
أيها الصديق العزيز أن هذه الملاحظة وحدها هي التي آلمك
بين الملاحظات الأخرى التي أخذت بها كتابك ثورة
الأدب، فأذن لي في أن أصر عليها وألح فيها. وأذن لي في
أن أسر أيضاً على كل رأي فيك لا أغير منه حرفاً، ولا
أنقص منه شيئاً. فأنت تجيد حتى تصل إلى الإبداع،
وتضعف حتى تشرف على الابتذال. ولك أن تلومني ما
شئت لأنني لم أهديك إلى مواضع الضعف في أسلوبك فقد
يئست من هدايتك، لأنك كما تقول محب لأسلوبك كما

هو ، مشغوف به على علاته ، لا تريد أن تغيره ولا أن تصلح مواضع النقص فيه ، وكل ما أخشاه أيها الصديق إنما هو أن تتهمني بالإسراف عليك والغلو في نقدك ، وقد كنت هممت أن أضرب الأمثال من ثورة الأدب لضعف أسلوبك فيه أحيانا ، ولكنني كرهت ذلك واكتفيت بالإشارة . فأما وأنت لا تحب الإشارة ولا ترضى إلا التصريح . فأذن لي في أن أضع يدك على طائفة من مواضع الضعف لا في ثورة الأدب بل في هذا الكتاب القيم الذي ترد به علي في الرسالة اليوم وفي السياسة بعد غد .

فأنت تقول في هذا الكتاب (ولست أخفيك) ولعلك توافقني على إن الخير في أن تقول (ولست أخفي عليك) وأنت تقول (ويرى أنها ما تزال لما تهدأ) ولعلك توافقني على أن لما هنا ثقيلة جدا مفسدة للأسلوب لوقوعها هذا الموقع النابي بين فعلين وأنت تقول (إذ وضعت تحت نظرك هذه العبارة) وأظنك توافقني على إن تحت نظرك هذه

قريبة جدا إلى الابتذال . وأنت تقول (لن أرضى لنفسى أن أكون إلا أنا) . ولعلك توافقني على أن الصواب إلا إياي . ومثل هذا كثير أيها الصديق العزيز في هذا الكتاب وفي ثورة الأدب . ولعلك ترى إن الخطأ والابتذال شيء وان البساطة والإيجاز والقوة شيء آخر . وانك تستطيع ، إن أردت ، أن تكون بسيطاً موجزاً قوياً دون أن تخطئ أو تدنو من الابتذال . أما بعد فقد أعجبني منك أيها الصديق انك سجلت في كتابك على ثنائي عليك كله تسجيلاً . ففيم كان هذا التسجيل ؟

أخائف أنت أن أنساه ؟ وكيف أنسى ما سجلت المطبعة ؟ أخائف أنت أن أنكره ؟ فثق بأنني قد أثبتت عليك صادقاً وما تعودت أن أعطي باليمين وأسترد بالشمال ؟ بعض هذا المكر وبعض هذا الدهاء . فالأمر بينك وبينى أرفع من المكر وأمتن من الدهاء وأوضح من أن يحتاج إلى التسجيل والتشديد في الحساب .

أما عد فهل تأذن لي في ملاحظة يسيرة جدا كنت أود لو
لم احتج إليها ، ولكن حياة الأدباء في هذه الأيام تضطرنني
إليها . كم أحب للأدباء ألا يضيقوا بالنقد وألا يحفلوا بالرد
عليه إلا أن تدعو إلى ذلك حقيقة علمية لا ينبغي إهمالها
فماذا يعنيك أن يحسن رأي الناس أو يسوء في أسلوبك ،
فإن كان هذا يعنيك أو يؤذيك فالخير في ان تجعل هذا سرا
بينك وبين نفسك لا أن تعلنه إلى الناس .
وأنا أرجو أيها الصديق العزيز أن تقبل مني تحية كلها
الحب والإعجاب .
طه حسين

إلى الأستاذ توفيق الحكيم

سيدي الأستاذ

لست أدري أيعنيني حقاً ويعني أصحابي ، أن نعرف رأي الجيل الجديد في جهدنا الأدبي وما أحدثنا من أثر في حياتنا الأدبية الجديدة . لأن العلم الصحيح برأي المعاصرين لا سبيل له ، أو لا تكاد توجد السبيل التي توصل إليه . أو قل أن هذا الجيل الجديد نفسه قد يشق عليه جداً أن يصور لنفسه فينا رأياً صحيحاً مستقيماً بريئاً من هذه العواطف الحادة الجاحمة التي تسيطر على نفوس الشباب ، وتؤثر أشد التأثير فيما يكونون لأنفسهم من آراء في الكتاب والشعراء المعاصرين . فهم بين معجب يدفعه الإعجاب إلى الإغراق في الشاء ، وبين ساخط يدفعه السخط إلى الإغراق في الذم . وأكاد أعتقد أن ليس من اليسير لكاتب أو شاعر أن يعرف رأي الناس فيه حقاً ، لأن

هذا الرأي لا يظهر واضحاً جلياً بريئاً من تأثير العواطف والأهواء والظروف ، إلا حين يصبح الكاتب أو الشاعر وديعة في ذمة التاريخ . ومع ذلك فأنا أشكر لك أجمل الشكر رأيك في أصحابي وفيّ ، وثنائك على أصحابي وعليّ ويسرهم كما يسرني أن يكون رأيك فينا صحيحاً ، وأن يكون ثنائوك علينا خالصاً من الإسراف في الحب الذي يدعو إلى الإسراف في التقدير .

لقد قرأت كتابك الممتع فترك في نفسي آثاراً مختلفة ، ولكن أظهرها الإعجاب بهذا التفكير المستقيم العميق ، وهذا الاطلاع الواسع الغني ، وهذا الاتجاه الخصب إلى تعرف الروح الأدبي لمصر في حياتها الماضية والحاضرة والمستقبلية . وقد دفعني إعجابي بكتابك القيم إلى ألاّ أختص به نفسي فأثرت به قراء الرسالة وأذعته فيهم . وأنا واثق بأنهم قد رأوا فيه مثل ما رأيت وحمدوا منه مثل ما حمدت ، وأثنوا عليك بمثل ما أثنت ، وهموا أن يناقشوا

بعض ما جاء فيه من الآراء كما أريد أنا الآن أن أناقشها .
ولست أدري أيقف أمر كتابك هذا عند إذاعته في الرسالة
وردي عليه ، أو يتجاوزهما إلى مناقشة طويلة عريضة ،
يشارك فيها كتاب مختلفون ونقاد كثيرون . فكتابك خليق
بهذه المناقشة ؛ لأن أسلوب التفكير فيه جديد قيم ، ومهما
أفعل فلن أستطيع أن أتناول كل ما أشعر بالحاجة إلى تناوله
بالنقد والتمحيص من آرائك الكثيرة المتباينة التي أفعمت
بها كتابك إفعاماً . ولكنني أقف عند طائفة قليلة من هذه
الآراء ، لا أستطيع أن أدعها تمضي من غير نقد ولا تعليق .
وأول ما أقف عنده من هذه الآراء رأيك فيما تسميه
شؤون الفكر في مصر ، قبل الجيل الذي نشأنا فيه ، فقد
ترى أن هذه الشؤون كانت كلها محاكاة وتقليداً وتأثراً
للعرب ، واحتذاءً خالصاً لمثلهم الأدبية ، حتى جاء الأستاذ
لطفي السيد ففتح لنا طريق الاستقلال الأدبي . وفي رأيك
هذا شيء من الحق ، لكن فيه شيئاً من الإسراف غير قليل ،

فلمست أعتقد أن الشخصية المصرية محيت من الأدب المصري محوً تاماً في يوم من الأيام ، ولست أعتقد أن كلمة أنا لم يكن لها مدلول في لغة المصريين ، ولست أعتقد أن المصريين كانوا في شبه إغماء حتى أقبل هذا الجيل الذي تتحدث عنه ، فرد عليهم الحياة والنشاط . كل ما يمكن أن يصح لك هو أن الشخصية المصرية في الأدب كانت زاوية ذابلة إلى حد بعيد في وقت من الأوقات لعلّه يتبدى بآخر عصر المماليك . ولكن هذه الشخصية على ذبولها وفتورها لم تمت ولم تمح ، بل ظلت حية تتردد أشعتها الضئيلة في آثار الكتاب والشعراء والعلماء ، إلى أن كان العصر الحديث . ويكفي أن تقرأ الأدب المصري في أيام المماليك وقبل أيام المماليك ، لتعلم أن شخصيتنا الأدبية كانت قوية منتجة ، وكانت جذابة خلابة في كل فرع من فروع حياتنا المعنوية . كانت في الشعر بنوع خاص أقوى منها في هذه الأيام ، وأقرأ ديوان البهاء زهير فستجد صورتك فيه

واضحة ، وستجد نفسك فيه ظاهرة ، وستجد عواطفك فيه ماثلة ، وستجد هذا كله أشد جلاء وقوة عند هذا الشاعر القديم منه عند شعرائنا المعاصرين . والأمر ليس مقصورا على هذا الشاعر ، بل هو شائع في شعرائنا جميعا قبل فتح الترك لمصر . وهو كذلك شائع في كتابنا وعلمائنا ، ولو قد كانت شخصيتنا ضعيفة فانية وفاترة واهية ، لما أتيح لنا أن نؤدي الحضارة الإسلامية ونحفظها من الضياع حين أخذ التار والأوروبيون عليها أقطار الشرق والغرب . ولم تكن هذه الشخصية في عصور الضعف والوهن خفية ولا غامضة ، فأنت تجدها واضحة في شعر هؤلاء الشعراء المتأخرين الذين عاشوا في أول القرن الماضي وفي أثنائه ، والذين لا نحب شعرهم ولا نطيل النظر فيه ، والذين يخيل إلينا انهم كانوا يقلّدون فيسرفون في التقليد ، ولكنهم برغم هذا التقليد الشديد لم يستطيعوا أن يحوا مصريتهم ولا أن يخفوها . ولست أستطيع أن

أضرب لك الأمثال هنا فذلك شيء لا ينتهي ، ولكنني
أؤكد لك أن حكمك على هذه الشخصية المصرية في
الأدب محتاج إلى التصحيح ، وأنت قادر على هذا
التصحيح ، إن قرأت أدبنا المصري كما تقرأ الأدب الغربي
وكما تقرأ الأدب العربي القديم ، ستجد فيه تقليداً ،
وستجد فيه بديعاً كثيراً ، ولكنك ستجد فيه نزعة مصرية
واضحة تحسّها حيثما ذهبت ، وأينما وجهت من أرض
مصر ، وتجدها عند المصريين المعاصرين الذين لم تخرّجهم
الثقافة الأوروبية عن أطوارهم المألوفة ، في الشعور
والتفكير وفي النظر إلى الحياة والتأثر بها والحكم عليها .
هذه النزعة صوفية بعض الشيء ، فيها مزاج معتدل من
الإذعان للقضاء والابتسام للحوادث ، وفيها مزاج معتدل
من حزن ليس شديد الظلمة ، ولا مسرفاً في العمق ، ومن
سخرية ليست عنيفة ولا شديدة اللذع ولكنها على ذلك
بالغة مقنعة ، تمضي في كثير من الأحيان ، ولعلك تجد هذه

النزعة نفسها قريبا جداً منك . لعلك تجدها في أهل الكهف . فجيلنا إذن لم يحدث شخصية مصرية لم تكن ، وإنما جلا هذه الشخصية وأزال عنها الحجب والأستار ، وجيلنا لم يمنحها الحياة ، وإنما منحها النشاط ، وزاد حظها من الاستقلال وغيّر وجهتها ، فلفتها إلى الأمام بعد أن كانت تصر على الالتفات إلى وراء ، وليس هذا بالشيء القليل . وأنا معجب بآرائك في الفن المصري ، وفي الفن الإغريقي ، ولكني لا أحب لك هذا الإسراع إلى استخلاص الأحكام العامة ، وإقامة القواعد التي لا تثبت للنقد والتمحيص . وآية ذلك أنك أنت نفسك قد أحسست بعض هذا الإسراع فأصلحته حين قضيت على اليونان في أول الكتاب ثم قضيت لهم في آخره . وستر أنك أسرعت في الأولى وأسرعت في الثانية ، وكنت خليقا أن تصطنع الأناة فيهما جميعا . فليس من الحق أن اليونان كانوا أصحاب مادة ليس غير ، وليس من الحق أن روحية اليونان

هذه التي أنكرتها في أول الكتاب ، وعرفتها في آخره قد جاءتهم من إلههم ديونيزوس وحده . فحظ اليونان من الروحية قديم تجده بينا في شعرهم القصصي في الإلياذة والأوديسا قبل أن تظهر فيهم الآثار العنيفة لدين ديونيزوس ، وأنت تعلم أن ظهور هذا الإله عند اليونان متأخر العصر ، وأنه في أكبر الظن اله أجنبي جاءهم من تراقيا ، وأنه لم يعطهم هذه الحياة الروحية العليا ، التي نجدها عند سقراط وعند تلاميذه ، وعند أفلاطون بنوع خاص ، وإنما أعطاهم حياة روحية أخرى كلّها تصوف وكلّها طموح إلى عالم مجهول مختلط تحيط به الأسرار والألغاز ، وتعبّر عنه الرموز والكنائيات . وكان هذا النوع من الروحية ذا مظهرين مختلفين ، أحدهما شائع مشترك ، يساهم فيه الشعب كله ، وأهل الريف منهم خاصة ، والآخر مقصور على طائفة معينة ، هي هذه التي تتعلم الأسرار وتشارك في إقامتها وإحيائها . فكان دين

ديونيزوس أشبه شيء بطرق الصوفية عندنا ، علمها الصحيح مقصور على خاصة المتصوفة ، ونشاطها العملي الغليظ شائع في أفراد الشعب جميعاً . وقد كان أثر ديونيزوس في الأدب اليوناني قوياً عميقاً . وحسبك إنه إله التمثيل ، ولكن روحية اليونان الخصبة حقاً ، الممتازة حقاً ، التي أزعمت معتدراً إليك إنك لا تستطيع أن تجد لها شبيهاً ولا مقارباً في مصر الروحية . هذه الروحية اليونانية تجدها واضحة جلية ، عذبة ساحرة عند فلاسفة اليونان من تلاميذ سقراط ، وعند أفلاطون بنوع خاص . ستقول كما قال كثيرون من قبل : إن أفلاطون قد زار مصر ، وأخذ منها . ولست أنكر روحية مصر ، ولكني لا أعرف عنها شيئاً كثيراً ، ولعلي مدين لليونان بما أعرفه من الروحية المصرية . ومهما يكن من شيء فأنت توافقني على أن اليونان لم يكونوا أصحاب مادة فحسب ، ولم تأتهم روحيتهم من ديونيزوس وحده ، وإنما اليونان مزاج معتدل

من المادة والروح . هم الذين يحققون مثلك الأعلى من
المزاوجة بين المادة والروح ، والملائمة بين الحركة
والسكون ، وبين القلق والاضطراب ، ولذلك كان اليونان
هم الذين أخرجوا للإنسانية في العصر القديم أرقى تراث
في الأدب والفن والفلسفة .

قلت إنني لا أنكر روحية المصريين . وأقول أيضاً إنني
مؤمن بروحية الهنود ، ومعترف بتأثير الروحية المصرية
والهندية في حياة اليونان . ولكني لا أعرف من روحية
المصريين شيئاً كثيراً لأننا لا نعرف للمصريين فناً ناطقاً ، لا
نعرف لهم أدباً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وأنت ترى
معني أن الأدب هو أوضح مصور لحياة العقول والقلوب ،
لأنه يحقق مقداراً مشتركاً يمكن الاتفاق عليه ، ويصعب
الاختلاف فيه . فنحن إذا قرأنا الشعر أو النثر معاً ، فهما
فهماً واحداً أو فهمين متقاربين ، ولكن الفن الصامت فن
البحث والتصوير وما إليهما يثير في نفوس الناس معانٍ

مهما تكن متقاربة متشابهة، فهي تختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والعصور، ها أنت ذا تفهم من الفن المصري ما تفهم، ويشاركك فيه كثير من المثقفين ثقافة أوروبية، ولكن أوافق أنت حقاً بأن قدماء المصريين كانوا يرون تماثيلهم وعماراتهم كما تراها، ويفهمونها كما تفهمها، ويستلهمونها كما تستلهمها؟ رأيك لو سألت مصرياً معاصراً لرمسيس عن رأيه في تمثال من التماثيل، أو عمارة من العمارات، أيقول فيهما مثل ما تقول؟ ومثل هذا يقال في الفن اليوناني، وفي كل الفنون الصامتة، فليس من الخير أن نعتمد عليها وحدها في تشخيص عقلية الأمم وروحيتها، إنما المشخص الصحيح للعقول والقلوب والأرواح هو الكلام، والكلام الجميل الذي نسميه الأدب ونقسمه شعراً ونثراً. فإلى أن يكشف لنا علماء الآثار المصرية عن أدب مصري قديم خليق بهذا الاسم أرجو أن تأذن لي في أن أشك في كثير جداً من هذه الأحكام التي

يرسلها الأدباء والشعراء وأصحاب الفن على عقلية
المصريين القدماء وروحيتهم ، وبعدهم عن المادة ، وقربهم
من الروح .

كل هذه عندي أحكام يتعجل بها أصحابها ،
ويرسلونها على غير تحقيق ، وإذن فقد يكون من الإسراف
أن تتخذ هذه الروحية المصرية الغامضة التي يسرع إليها
الشك ، والتي تعجز عن أن تثبت للبحث ، والتي توشك
إن تكون خيالاً تخيلته أنت وتخيله أصحابك من الأدباء
ورجال الفن أساساً لأدبنا المصري الحديث . فمن يدري
لعل البحث عن آثار مصر أن يكشف لنا بعد زمن طويل أو
قصير عن حياة مصرية قديمة تغاير كل المغايرة هذا الخيال
الذي تحبونه تطمئنون إليه ، ويخيل إليكم أن الفن المصري
القديم يوحيه ويمليه وينطق به .

نحن إذاً أمام أمرين أحدهما عرضة للشك الشديد ، لا
نكاد نعرف منه شيئاً ، والآخر لا سبيل إلى الشك فيه ؛

أحدهما حياة مصر القديمة وحضارتها العقلية - إن صح هذا التعبير - والآخر حياة العرب وحضارتهم . فإلى أي الأمرين نفع لنقيم عليه بناء أدبنا الجديد؟ إلى الشك أم إلى اليقين؟ وهنا يظهر الخلاف بينك وبينى شديداً حقاً، فقد أصلحت أنت رأيك في اليونان، ولا أستطيع مناقشتك في أحكامك على المصريين لأنها أثر الإلهام الفني، ولكن رأيك في العرب وآثارهم في حاجة شديدة جداً إلى التقويم . فقد كنّا نرى أن ابن خلدون جار على العرب فإذا أنت أشد منه جوراً وأقل منه عذراً . فقد يسّر الله لك من أسباب العلم بالتاريخ القديم، وتاريخ القرون الوسطى وتاريخ الحياة الأدبية والفنية والعقلية لمختلف الأمم والشعوب ما لم يسّره لابن خلدون . فإذا قبل من هذا المؤرخ الفيلسوف أن يتورّط في الخطأ لأن عقله الواسع لم يحيط من أمور اليونان والرومان والهند والفرس والمصريين القدماء بما نستطيع نحن الآن أن نحيط به أو نمنع فيه . فليس

يقبل منك أنت هذا الخطأ وليس يقبل من المعاصرين بوجه عام . وقد ذهب إلى مثل ما ذهبت إليه جماعة من المستشرقين منهم دوزي ورينان ، وأحسبكم جميعاً تظلمون العرب ظلماً شديداً وتقضون في أمرهم بغير الحق . فلو أنكم ذهبتُم تقارنون بين العرب وبين الهنود والفرس ، والمصريين القدماء لما كان من حقكم أن تقدموا هذه الأمم في الأدب على الأمة العربية بحال من الأحوال ، لأننا لا نكاد نعرف من آداب هذه الأمم في تاريخها القديم شيئاً يقاس إلى ما بين أيدينا من الأدب العربي . فإلى أن يستكشف أدب هذه الأمم إن كان لها أدب أكثر من هذا الذي نعرفه ، يجب أن نؤمن للعرب بالتفوق عليها في الشعر والنثر جميعاً . للمصريين فنهم ، وللهنود قصصهم وفلسفتهم ، ولكن للعرب شعرهم ونثرهم ودينهم ، ولهم قصصهم أيضاً . فإذا أردت أن تقارن بين العرب والرومان فأظنك توافقني على أن الأدب العربي الخالص أرقى جداً

من الأدب الروماني الخالص ، أيأن الأدب الروماني إنما ارتقى حقاً حين أثر فيه الأدب اليوناني ، فالرومان تلاميذ اليونان في الأدب والفن والفلسفة ، والعرب يشبهونهم في ذلك . ولكن العرب كان لهم أدب ممتاز قبل أن يتأثروا بالحضارة اليونانية ، ولم يكن للرومان من هذا الأدب الروماني الممتاز الخالص حظ يذكر . وقد تفوق الرومان في الفقه ، ولكنهم لم يسبقوا العرب في هذه الناحية من نواحي الانتاج ، ولعل الأمة الوحيدة التي يمكن أن تشبه بالرومان في الفقه إنما هي الأمة العربية .

لم يبق إذن إلاّ أدب اليونان ، هو الذي يمكن أن يقال فيه انه متفوق على الأدب العربي حقاً ، ولكن من الذي يقيس رقي الأدب في أمة من الأمم برقي الأدب في أمة أخرى ؟ فإذا كانت ظروف الحياة العربية مخالفة أشد المخالفة لظروف الحياة اليونانية ، فطبيعي أن تختلف الآداب عند الأمتين . وليس من شك في أن الأدب العربي قد صور

حياة العرب تصويراً صادقاً فأدى واجبه أحسن الأداء ،
وكل ما يؤخذ به الأدب العربي القديم هو أنه لا يصور
حياتنا نحن الآن ، ولكن أوافق أنت بأن الأدب اليوناني
القديم قادر على أن يصور الحياة الحديثة تصويراً يرضي
أهلها؟! أمّا أنا فلا أتردد في الجواب على مثل هذا السؤال ،
فالأدب اليوناني القديم خصب غني ممتع من غير شك ،
ولكنه كالأدب العربي قد صور حياة القدماء ، وهو قادر
على أن يلهم المحدثين لا أكثر ولا أقل .

وأراك تذكر الفن العربي فتعيبه وتغض منه ، وقد تكون
موفقاً في ذلك ، ولكن أليس من الظلم أن تحمل هذا الفن
على العرب وإنّما هو فن إسلامي ساهمت فيه الأمم
الإسلامية المختلفة واستمدت أكثره من البيزنطيين . فإذا
كان لك أن تعيب هذا الفن أو تحمده ، فأحب أن تقتصد في
إضافته إلى العرب ، والخير أن تضيفه إلى الأمم الإسلامية .
وأمر العرب بالقياس إلى الفن والأدب والعلم والفلسفة

بعد العصر العباسي الأول ، كأمر اليونان بالقياس إلى هذه الأشياء كلها بعد غارة الاسكندر على الشرق . كانوا ملهمين باعثن للنشاط دافعين إلى الانتاج ، مقدمين لغتهم وعاء لما تنتجه العقول والملكات على اختلافها ، وقد يكون من الحق أن كل مقامة من مقامات الحريري أشبه بباب من أبواب جامع المؤيد ، ولكن من الحق أيضا أن الآثار الأدبية التي تشبه مقامات الحريري والآثار الفنية التي تشبه أبواب جامع المؤيد كثيرة جدا عند اليونان في العصر المتأخر ، وعند البيزنطيين ، ولعل هذه الآثار اليونانية البيزنطية هي التي أحدثت عند المسلمين مقامات الحريري وأبواب جامع المؤيد . وأنت تميز اليونان بالحركة ، وتميز العرب بالسرعة ، وتستنبط من هذه السرعة ظلماً كثيراً للعرب ، كما فعل ابن خلدون من قبل ، وليس من شك في أن العرب يشاركون اليونان في الحركة ، ولكن ليس من شك أيضاً في أنك تغلو غلواً شديداً في وصفهم بالسرعة . إنما أسرع

العرب في الخروج من باديتهم ، ولكنهم حين بلغوا
الأمصار استقرّوا فيها ، وطال بهم المقام ، فأثروا في أهلها
وتأثروا بهم ، وكانوا في القرون الوسطى أشبه الأمم
باليونان في العصر القديم . ورأيك في الموسيقى العربية
واليونانية في حاجة إلى التصحيح أيضا ، فنحن نعلم من
الموسيقى اليونانية شيئا يسيراً غير مضبوط ، ولا نعلم من
الموسيقى العربية شيئا ، ولست أدري إلى أي أمة أو إلى أي
جيل نستطيع أن نرد هذه الموسيقى ، وهذا الغناء اللذين
نتحدث عنهما . ولكن الشيء الذي لا أشك فيه هو أن من
العسير جداً أن نردهما إلى العرب القدماء . وكل شيء يدل
على أن الموسيقى والغناء العربي كما كان يعرفهما العرب
أيام الأمويين والعباسيين وفي الأندلس كانا متأثرين أشد
التأثر بالموسيقى البيزنطية والغناء البيزنطي . فإذا أردت أن
تعيبهما فلا تنس أن تعيب أصلهما اليوناني القديم .

وأريد الآن أن أدع هذه المناقشات التي تمس أموراً
جزئية وأن أخلص إلى جوهر الموضوع الذي تريد أن
تعرف رأيي فيه، وهو: الروح المصري الذي ينبغي أن
يقوم عليه الأدب الحديث ما هو؟ وما العناصر التي تؤلفه؟
وأنا استأذنك في أن أكون يسيراً سهلاً، لا متعمقاً ولا
متكلفاً، ولا باحثاً عن الظهر في الساعة الرابعة عشرة (كما
يقول الفرنسيون) فالأمر أيسر جداً من هذا كله. عناصر
ثلاثة تكون منها الروح الأدبي المصري، منذ استعربت
مصر، أولها العنصر المصري الخالص الذي ورثناه عن
المصريين القدماء على اتصال الأزمان بهم، وعلى تأثرهم
بالمؤثرات المختلفة التي خضعت لها حياتهم، والذي
نستمدّه دائماً من أرض مصر وسمائها، ومن نيل مصر
وصحرائها. وهذا العنصر موجود دائماً في الأدب المصري
الخالص، قد حاولت تشخيصه بعض الشيء في أول هذا
الفصل، فيه شيء من التصوف، وفيه شيء من الحزن،

وفيه شيء من السماحة ، وفيه شيء من السخرية .
والعنصر الآخر هو العنصر العربي الذي يأتينا من اللغة
ومن الدين ومن الحضارة ، والذي مهما نفعل فلن نستطيع
أن نخلص منه ، ولا أن نضعفه ولا أن نخفف تأثيره في
حياتنا ، لأنه قد امتزج بهذه الحياة امتزاجاً مكوناً لها مقوماً
لشخصيتها ، فكل إفساد له إفساد لهذه الحياة ومحو لهذه
الشخصية ، ولا تقل انه عنصر أجنبي ، فليس أجنبياً هذا
العنصر الذي تمصر منذ قرون وقرون ، وتأثر بكل المؤثرات
التي تتأثر بها الأشياء في مصر من خصائص الإقليم
المصري ، فليست اللغة العربية فينا لغة أجنبية ، وإنما هي
لغتنا وهي أقرب إلينا ألف مرة ومرة من لغة المصريين
القدماء . وقل مثل ذلك في الدين ، وقل مثله في الأدب .

أما العنصر الثالث ، فهو هذا العنصر الأجنبي الذي اثر
في الحياة المصرية دائماً ، والذي سيؤثر فيها دائماً ، والذي
لا سبيل لمصر إلى أن تخلص منه ، ولا خير لها في أن تخلص

منه ، لأن طبيعتها الجغرافية تقتضيه ، وهو هذا الذي يأتيها من اتصالها بالأمم المتحضرة في الشرق والغرب . جاءها من اليونان والرومان واليهود والفينيقيين في العصر القديم ، وجاءها من العرب والترك والفرنجة في القرون الوسطى ، وبيئها من أوربا وأميركا في العصر الحديث . فخذ الآن أي أثر أدبي مصري فحلله إلى عناصره التي يتكون منها ، فستجد فيه هذه العناصر الثلاثة دائما . ولكنك ستجد بعضها أقوى من بعض بمقدار حظ المؤلف أو المنشئ من هذه الثقافات الثلاث المختلفة . بعض هذه الآثار يغلب فيه العنصر العربي ، وبعضها يغلب فيه العنصر الأوربي ، وقليل جدا منها يظهر فيه العنصر المصري القديم . فإذا لم يكن بد من أن أصور المثل الأعلى لروحنا المصري في أدبنا الحديث ، فأني أحب أن يقوم التعليم المصري على شيء واضح من الملاءمة بين هذه العناصر الثلاثة فتشدد عنايته جدا بالتاريخ المصري ، والفن

المصري ، والأدب المصري على اختلاف العصور . وتشتد عنايته جداً بالأدب العربي ، والتاريخ العربي ، والدين الإسلامي . ثم تشتد عنايته بالثقافة الحديثة . وأخوف ما أخافه على هذا الروح المصري شيئان : أحدهما أن تلهينا الثقافة الأوربية عن الثقافة المصرية والعربية ، وكل شيء يغرينا بها ويغريها بنا فهي ضرورة من ضرورات الحياة ، فمن الحق علينا أن لا نضيع حظنا منها ، ولكن من الحق علينا ألا ننفي أنفسنا فيها . الثاني أن نؤثر ثقافة أوربية على ثقافة أوربية فنؤثر الثقافة الأنكليزية (كما يريد قوم وكما تريد سياسة الدولة) أو نؤثر الثقافة اللاتينية (كما يريد قوم آخرون ، وكما كانت تريد سياسة الدولة من قبل) هذا خطر لأنه يجعل الروح المصري الناشئ وجهها لوجه أمام روح أوربية أقوى منه وأشد بأساً . فيوشك أن يخضع له ويفنى فيه ، فلو قد فتحنا أبوابنا للثقافات الأجنبية على اختلافها ، لانتفعنا بها كلها ولأضعف بعضها بعضاً ،

و حال بعضها دون بعض أن يفنينا أو يسيطر علينا . لذلك
تمنيت وما زلت أتمنى لو لم تفرض على مصر لغة بعينها
من لغات الأوربيين ، بل جعلت اللغات الحية الراقية كلها
مباحة للطلاب يأخذون منها ما يشاءون .

هذا الروح المصري الذي يتكون من هذه العناصر
الثلاثة ، هو الذي نشهده الآن عندك وعند كثير من أمثالك
المثقفين ، وهو الذي نجد في نشره وإذاعته بين المصريين
جميعا ، وهو الذي سيطع أدبنا المصري الحديث بطابعه
القوي سواء أردنا أم لم نرد . فشخصيتنا المصرية العربية
أقوى بحمد الله من أن تمحى أو تزول ، والحضارة الأوربية
أقوى وألزم من أن نعرض عنها ، أو نقصر في الأخذ بحظنا
منها . ستسألني : ولكن الأديب ؛ من أين يستمد
خوابره ، ويستلهم وحيه ؟ فأجيبك : من هذه العناصر
كلها ، أو من أي من هذه العناصر شاء ، سيكون منّا
الأديب الذي يستلهم العنصر المصري القديم ؛ أليس بين

الفرنسيين من يستلهم اليونان؟ وسيكون منّا الأديب الذي يستلهم العنصر العربي؛ أليس من الفرنسيين من يستلهم الرومان؟ وسيكون منّا أن يستلهم العنصر الأوربي، أليس من الفرنسيين من يستلهم السكسونيين؟ بل من يستلهم الشرق الأقصى، أو الشرق الأوسط، أو الشرق القريب، بلى. والأمر كذلك عند الإنجليز وعند الألمان، وعند غيرهم من الأمم الحية. فأنت ترى أن أمر هذا الروح المصري أيسر من أن يدعو إلى الخوف أو يضطر إلى الحيرة وأكبر الظن أن مصدر هذه الحيرة وذلك الخوف إنما هو اضطراب سياسة التعليم في مصر وقيامها على غير أساس، وسيرها في غير طريق، ولو قد وضحت هذه السياسة واستقامت منذ زمن بعيد لما تساءلنا الآن عن الروح المصري، ولا عن الأدب المصري من أين يستمد الحياة.

أما بعد؛ فقد كنت أريد أن أقصد وأؤثر الإيجاز،
ولكن الحديث معك أغراني بالإطالة وحببها إليّ، وأرجو
أن لا أكون عليك ولا على غيرك من القراء، وأرجو أن
تقبل تحيتي الخالصة.

الأهل اليائس

ولدت في آخر القرن السابع عشر سنة ١٦٩٧ . وماتت في آخر القرن الثامن عشر سنة ١٧٨٠ ، وجمعت لنفسها من مزايا هذين العصرين ، ما جعلها أبرع الناس أدبا وأشد الناس شكا ، وأوسع الناس أملا ، وأقتم الناس يأسا ، وأظهر الناس فرحا ، وأعمق الناس حزنا . ولكني أنسيت أن أسميها . وقد كان يجب أن أبدأ بتسميتها هذا الحديث . فهي ماري دي فيشي شمبرند .

التي يعرفها تاريخ الآداب الفرنسية باسم مدام دي ديفان .

كان مولدها ونشأتها في هذه السنين القائمة التي ختمت حكم لويس الرابع عشر . وأدركها اليتيم طفلة فأرسلت إلى دير من هذه الأديرة التي كان يرسل إليها بنات الأغنياء . وكانت أسرتها عريقة في الشرف والنبل ، متقدمة في خدمة

الدولة . محتفظة بمكانة رفيعة بين أشراف الأقاليم . وكانت هذه الأسرة من أشراف بوجوني ، وأهل هذا الإقليم من فرنسا معروفون بالنشاط القوي وحدة الذهن ، وذلاقة اللسان ، وحب الحياة ، وإيثار ما تقدمه إلى الناس من لذات . فلم يطل مقام هذه الصبية في ديرها الأرستقراطي حتى ظهر من حديثها وسيرتها ما أقلق الأسرة ، وأقلق رئيسة الدير . ويجب أن يكون هذا الذي ظهر من سيرتها وحديثها خطيراً جداً . فلم تكن أسر الأشراف لتقلق من شيء يسير . ولم يكن أهل الأديرة ليضيقوا إلا بالشيء الذي لا يطاق . ذلك بأن حياة الناس في ذلك العصر كان قد أخذها الفساد الخلقي ، من جميع نواحيها ، حتى استهانوا بكل شيء ، وتجاوزوا عما لم يكن يتجافى الناس عنه إلا في مشقة وعنف . وحسبك أن تعلم أن الأديرة كانت قد استحالت في ذلك العصر إلى قصور فخمه يلهو فيها من أبناء الأشراف وبناتهم من لم تسمح له ظروف

الحياة بالعمل في السياسة أو في الجيش ، ومن لم تتح لهن ظروف الحياة أن يظفرن بالزوج . وكان بنات الأشراف خاصة يتخذن من هذه الأديرة دورا للعبث واللهو ، يسترن ذلك بستار رقيق من اسم الدين . ولم يكن ليتخرجن من استقبال الزائرين والزائرات ، ولا من إقامة الحفلات الراقصة ، بل كان الرقص والموسيقى جزأين أساسيين من برنامج التعليم الذي كان يلقي إليهن فيها : فإذا استطاعت صبيتنا هذه أن تزعج أسرتها ، ورئيسة الدير بما أظهرت في سيرتها وأحاديثها من خروج على التقاليد ، فيجب أن تكون قد أتت أمراً عظيماً . وهي قد أتت أمراً عظيماً حقاً ، فقد كانت تجادل في الدين ولما تبلغ الثانية عشرة ، وكان جدالها هذا خطراً خيفاً . لأنها كانت تنكر أصول الدين إنكاراً . وقد استعانت الأسرة ورئيسة الدير على جحود هذه الصبية بعظيم من عظماء الكنيسة وخطيب من أبرع الخطباء في عصره وهو فدعي هذا الحبر للقاء هذه الطفلة

ومحاورتها ، فلما رآها سمع لها وتحدث إليها وانصرف عنها يائسا وهو يقول إنها لظريفة . فلما سألته رئيسة الدير عما تصنع لردها إلى طريق الحق أطال الصمت ثم قال : ضعي في يدها كتابا من أرخص كتب الدين ، ثم لم يزد على ذلك شيئا . وذكرت الصبية حين تقدمت بها السن حوارها مع هذا الحبر العظيم ، فقالت : إن عقلي قد اضطرب أمام عقله ، وقالت أنني لم أذعن لحجته وإنما أذعنت لجلاله ؛ ومعنى ذلك أن الخصمين التقيا فلم يقنع أحد منهما صاحبه . فلما بلغت هذه الفتاة العشرين أو جاوزتها قليلا ، زوجت من رجل شريف ، عظيم الخطر ، من حكام الأقاليم . ولكنها لم تكد تقضي معه أشهراً حتى أنكرته وضاق به وكرهت عشرته كرهاً شديداً . وكانت تقول عنه إنه يبذل أقصى ما يستطيع ليسوئك ويصرفك عنه . على أنها قد أقنعت بالرحلة إلى باريس . ولم تكد تصل إلى هذه المدينة وتستقر فيها حتى اندفعت في حياة

اللهو والعبث ، اندفاعاً لفت إليها الناس ، وجعلها موضوع الأحاديث في هذه المدينة الباسمة اللاهية .

وكان لويس الرابع عشر قد مات ، وكان أمر الدولة إلى الوصي الذي أقيم على الملك ، الصبي لويس الخامس عشر . وكان هذا الوصي صاحب لهو لا حد له ، وصاحب مجون وعبث لا حد لهما أيضاً . وكان الناس قد ساروا سيرته كأنما أرادوا أن يعوضوا ما فاتهم في تلك الأيام الحزينة التي ختمت حكم الملك الشيخ ، وما أسرع ما اتصلت صاحبتنا بقصر الوصي واشتركت فيما أقام فيه من حفلات ، ثم اتصلت بالوصي نفسه ، وأصبحت له خلية ولكن حبه لها لم يتجاوز خمسة عشر يوماً . على إنها قد رجحت من هذا الحب القصير ستة آلاف من الجنيهات الفرنسية ، تصرف لها في كل عام ما امتدت لها الحياة . وأسرفت صاحبتنا في اللهو حتى أنكرها أصحاب اللهو من أهل باريس ، وحتى ساءت الصلة بينها وبين زوجها ،

فافتراقاً دهرًا ثم كان بينهما صلح لم يطل ، وعادا إلى
الفرقة . ثم كان بينهما صلح آخر ، قوامه أن يلتقيا على
الغداء والعشاء . وإلا يعيشا معاً ، ولكن هذا الصلح نفسه
لم يتصل أيضاً ، ففرق بينهما وعاد الرجل إلى قصره في
الأقاليم وأقبلت هي على لهوها في باريس لا تدع فناً من
فنون العبث إلا أخذت منه بحظ عظيم ، على أنها لم تكد
تجاوز الثلاثين حتى تبينت أن ما هي فيه من الأمر باطل
كله ، وحتى سئمت اللهو وعافته ، وأخذت تحس انصراف
الناس عنها . فأوت إلى أخ لها قسيس أقامت عنده دهرًا ثم
انصرفت عنه إلى أخ آخر لها في الأقاليم ، ثم عادت مرة
أخرى إلى باريس . واتصلت بقصر من قصور الأشراف
كان يؤوي أكبر من تعرفهم فرنسا وأوروبا من الأدباء
والفلاسفة ، وأصحاب الفن ، وفي هذا القصر ظهرت
قيمتها الأبية ، واستكشفت براعتها في الحديث وتبين الذين
عاشروها أنها امرأة ليست كغيرها من النساء ، بل ليست

ككثير من الرجال ، وإنما تمتاز بقلب ذكي ، وعقل قوي ،
ولسان فصيح عذب ، ومهارة في تصريح الحديث لا تبلغ
الإعجاب وحده ، ولكنها تبلغ إعجاز المحدثين مهما تكن
منزلتهم ، ومن ذلك الوقت أخذ أمر هذه المرأة يعظم .
وشأنها يرتفع ، لا من حيث أنها امرأة جميلة خلابة . تحب
اللهو وتسرف فيه ، فقد كانت في ذلك الوقت قد بدأت
تقصر عن اللهو وتعري أفراس الصبي ورواحله ، كما
يقول زهير ، بل من حيث أنها امرأة أديبة أريية يستطيع أن
يستمتع بحديثها ، وعشرتها ، وبراعتها ذوو العقول . وقد
أثرتها صاحبة القصر إثارة عظيماً حتى لم تكن تصبر على
فراقها ، وأحبها فولتير وكلف بها منتسكيو وأطاف بها
أعلام الأب والفلسفة من الفرنسيين يستبقون إلى مودتها ،
وما هي إلا أن تتخذ لنفسها داراً في باريس وتدعو إليها
أصدقائها هؤلاء من الأباء والعلماء والفلاسفة يسمرون
عندها يوم الأربعاء من كل أسبوع . ثم تضيق هذه الدار

بمن يقصد إليها من رجال فرنسا وأوروبا على اختلافهم فتتحول عنها إلى دار أخرى رحبة تستأجرها في دير من هذه الأديرة الأرستقراطية في باريس . وفي هذه الدار التي استأجرتها كانت تقيم قبلها مدام دي منتسبان خليلة لويس الرابع عشر ، تلك التي ملأت حياة الملك العظيم لذة وإثماً ، وكلفت رجال الدين من حوله مشقة وجهداً ، والتي كانت تؤوي إلى هذا الدير من حين إلى حين تستغفر الله من خطاياها وتضرع إليه في الوقت نفسه أن يحفظ عليها هذه الخطايا . أقامت صاحبتنا في هذه الدار ونظمت استقبالها لأعلام فرنسا مرتين في الأسبوع يتناولون عندها العشاء ويسمرون إلى قريب من آخر الليل ، ويتحدثون فيما شئت من أدب وعلم ، ومن فلسفة وفن ، ومن سياسة وحرب . ولكنها لم تكن تحب أن تشارك الآباء والعلماء والفلاسفة فيما كان يجري بينهم من حوار ؛ لأنها كانت تكره الأب والعلم ، وكانت تكره الفلسفة خاصة وتضيق بها ضيقاً

شديداً، وكانت تعنى بأشخاص زائريها أكثر مما تعنى بما كان عندهم من علم، أو أدب، أو فلسفة. كانت مسرفة في الشك وكان إسرافها في الشك يصرفها عما كان يكلف به الناس في عصرها من هذه الفلسفة الحرة الغالية التي كانت تعمل في الهدم أكثر مما كانت تعمل في البناء. وتتقدم السن بصاحبنا وقد مات زوجها وأصبحت حرة حتى أمام القانون، وقد جدّت بتنظيم حياتها وانصرفت عن اللهو والمجون إلى حياة الجد ولذة الحديث والسمر، ولكنها على ذلك اتخذت لها خليلاً عاشت معه عيشة الأزواج، لم تكن تحبه ولكنها لم تكن تكرهه، إنما كانت تستعين به على احتمال الحياة، كما كانت تستعين بكل شئ على احتمال الحياة، فقلما عرف تاريخ الآداب امرأة ضاقت بالحياة كما ضاقت بها هذه المرأة، بل قلّما عرف تاريخ الآداب رجلاً ضاق بالحياة كما ضاقت بها هذه المرأة. كانت متشائمة كأشد ما يكون التشاؤم، وكانت

تردد هذه الكلمة التي تقربها من أبي العلاء : إن شر من ابتلينا به من الشقاء ، إنما هو الحياة . وكانت تستعين بإسرافها في المجون والعبث ، ثم في الجد والانتاج الأبوي على احتمال الحياة ، ولعلها لم تله ، ولم تعبث ولم تجد إلا لتنسى الحياة وتنصرف عن نفسها . فقد كانت تكره العزلة وتحافها خوفاً شديداً ، فكانت تسهر الليل ، ولا تنام الا قليلاً في النهار ، وتنفق وقتها قارئة أو لاهية أو مستقبلة . ولا تكاد تبلغ الخمسين من عمرها حتى يتم الله محنته لها ، وحتى يأخذها الشقاء من كل وجه . فهذا حجاب رقيق يلقي شيئاً فشيئاً بينها وبين النور ، ثم يتكاثف هذا الحجاب قليلاً قليلاً ، وهي تحس ذلك وتجزع له وتلجأ إلى الأطباء والسحرة ، والمشعوذين ، فلا تجد عند أحد منهم شيئاً . والحجاب يتكاثف ويتكاثف ، حتى يستحيل إلى سور صفيق يقطع كل سبب بينها وبين الضوء وإذا هي عمياء .

أفتظن ذلك قد غير من سيرتها أو اضطرها إلى شيء من
القصد والاعتدال ، ليس من شك في أنها قد حزنت لذلك
حزناً عميقاً ولكنه حزن أضيف إلى حزن . حفظته في
أعماق نفسها ولم تظهر منه للناس شيئاً . إنما كتبت إلى
بعض أصدقائها من أعلام الأب والسياسة تنبؤهم بهذه
الكارثة فمنهم من رق لها كفولتير ، ومنهم من عبث بها
كمنتسكيو ، وكلهم قد مضى في إكبارها ، والاختلاف
إليها ، لم يغير من سيرته شيئاً كما لم تغير هي من سيرتها
شيئاً . فظلت مائدتها تقام يوم الاثنين والأربعاء من كل
أسبوع ، وظلت تختلف إلى الأوبرا والملاعب ، وتشترك في
الحفلات كما كانت تفعل من قبل . واتخذت لها رفيقة فتاة
من أهل الأقاليم ولدت في أسرة شريفة ولكن مولدها لم
يكن شرعياً ، وكانت هذه الفتاة مدموازيل لسبيناس ذكية
بارعة الذكاء ، حساسة قوية الحس ، مثقفة واسعة الثقافة ،
وكانت المودة بينها وبين سيدتها قوية متينة ، دامت عشر

سنين لم يكدر صفوها مكدر . ثم لاحظت صاحبة الدار أن زوارها أو فريقا منهم إذا انصرفوا عنها لم يخرجوا ، وانما أتموا سمرهم عند الفتاة ، فغاضها ذلك وكانت القطيعة بين الصديقتين ، ولكنها لم تكن قطيعة مألوفة إنما كانت حدثا من أحداث العصر في باريس ، انقسم له الآباء والفلاسفة انقساماً عظيماً ، تعصب بعضهم للشيخة وتعصب بعضهم للفتاة ، وكانت كثرة الفلاسفة وعلى رأسهم أنصار الفتاة وكانت الأرستقراطية المعتدلة والمحافضة من أنصار الشيخة .

ثم استأنفت الحياة المنظمة طريقها عند صاحبتنا ، واتخذت الفتاة لها نادياً أو صالوناً أدبياً واشتدت المنافسة بين هاتين المرأتين . وصاحبتنا الآن في الثامنة والستين من عمرها قد فقدت البصر منذ ثمان عشر عاماً ، وعظمت مكانتها في أوروبا حتى لم يكن عظيم من الأوروبيين يزور باريس ألا رأى حقاً عليه لنفسه ولمكانته أن يلقاها

ويتحدث إليها . وفي أكتوبر من هذه السنة ١٧٦٥ زار باريس رجل من عظماء الإنجليز هو هوراس ولبول كان أبوه روبير وزيرا وكان هو عضوا في البرلمان . فلما مات أبوه ترك السياسة ، وانصرف إلى الأب والفن ، وكان في الخمسين من عمره . ولم ير هذا الرجل بدا من أن يزور صاحبتنا هذه ويغشي ناديها كما كان يغشي أندية الأب والسياسة كلها في باريس . فلما رأى هذه الشيخة أنكرها ، وكتب إلى صديق له يصفها بأنها عجوز عمياء فاجرة العقل . على أن وقتا قصيرا لم يمض على هذه الزيارة حتى تغير الأمر بين هذا الإنجليزي وهذه الفرنسية ، وتكررت الزيارة فوقع الإنجليزي من نفس هذه المرأة موقعا غريبا رد إليها الشاب بل رد إليها الصبي فأحبهه . وأنا أعني بهذه الكلمة معناها . أحبه وقد أشرفت على السبعين ولم يرفض هو هذا الحب . ومن المحقق انه لم يلق هذا الحب بمثله ، ولكنه أضمر لهذه المرأة مودة قوية صادقة لم غيرها

الأيام واطهر بها إعجاباً لا حد له . واتصلت أسباب المودة والحب بينهما ما أقام في باريس ، فلما رجع إلى لندرة اتصلت بينهما الكتابة ، وكان يأتي إلى باريس من حين إلى حين ليرى حبيبته أو ليرى عاشقته ، أو ليرى يتيمة ، كما كانت تسمى نفسها ، فقد كانت تسمى نفسها يتيمة وتسميه هو وصياً . وكان هو يسميها ابنته الصغيرة . وكان الحنان بينهما كأقوى ما عرف الناس من الحنان بين المحبين . وكانت نتيجة هذا الحب أربع مجلدات نشرت بعد موتها وفيها ثمانمائة من الرسائل التي اتصلت بينهما . وهي آيات من آيات الأب الفرنسي لا أكثر ولا أقل ، فيها تصوير لهذه العواطف النادرة ، الشاذة ، التي لم يألّفها الناس والتي تملأ قلوبهم مع ذلك رحمة وبراً ، وإشفاقاً ، وعطفاً . وما رأيك في هذه الضريرة التي نيفت على السبعين والتي تكتب لصاحبها رسائل حب وغرام كرسائل الفتيات اللاتي لم يتجاوزن العشرين . على أن

صاحبها كان إنجليزيا ، ومعنى ذلك أنه كان يخاف
السخرية ، والمزاح ، وكانت الرقابة مضروبة على الرسائل
في إنجلترا ذلك الوقت . فكان صاحبنا مروعا دائما يخشى
أن تفض رسائل صاحبه ، وأن يعرف ما فيها من هذا
الحب الغريب ، فيتندر الناس به في القصر وفي الأندية .
فكان يرد صاحبه إلى القصد في تصوير عواطفها الحارة ،
وكانت هي تخاصمه في ذلك ، وكان الأمر يفسد بينهما
أحيانا ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى خير ما كان . وانقطعت
رسائله عنها مرة فكتبت إليه : يظهر انك لا تريد أن
تظهرني من أمرك على شيء ، فاحذر أيها الوصي أن تصبر
على ذلك فاني خليقة إن فعلت أن أرسل إليك سكرتيري
وأن أكلفه الإسراع إلى لندرة وأمره أن يلزمك وأن يرسل
إلي بآنبائك ، وأن يعلن إلى الناس جميعا وفي كل مكان أنني
يتيمتك ، وأنت وصيي ، وأنا أحبك ، وأن يهيا لي عندك
مكانا فالحق به ، وأعلن إلى الناس جميعا ما بيننا ، لا أخاف

فضيحة مهما تكن ، فاختر لنفسك بين الفضيحة والكتابة إلي . ولعلها كانت في بعض الوقت تدعن وتطيع ، وترد نفسها إلى القصد ثم تثور فترسل نفسها على سجيتها وتطلق حبها صريحا حرأ . وكذلك عاشت هذه المرأة خمسة عشر عاما ، استرد قلبها فيها شبابه كله وتبينت هي وتبين هو وتبين الناس في عصرهما ، ومن بعدهما أن ما اندفعت فيه هذه المرأة من العبث واللهو ، ومن المجون والفساد ، ثم من الجد الخصب والنشاط المنتج ، كل ذلك لم يكن إلا ضيقا بالحياة وافتقاراً لهذا النور الذي يجيبها إلى النفس . وهو الحب ، ومصارعة لهذا العدو الفاتك وهو اليأس ، فلما بلغت السبعين أو كادت تبلغها ظفرت بالحب عند هذا الإنجليزي ، وظفرت به من غير طريقه كما كان يقول المعاصرون ، فان العيون هي أوضح طرق الحب إلى النفوس ، ولكن الحب قد يسلك إلى النفوس طريق الأذان كما قال شاعرنا القديم . وأكبر الظن أن صوت هذا

الإنجليزي هو الذي حمل الحب إلى نفس هذه الفرنسية فثبته فيها تثبيتاً .

وفي سنة ١٧٨٠ ماتت هذه المرأة وكتبت قبل موتها بقليل جداً إلى صاحبها كتاباً تنبؤه فيه بقرب آخرتها . وتنبؤه بأنها لا تأسف لفراق الحياة ، لأنها لا ترى في الحياة خيراً بعد أن كتبت إليها أن لا تلقاه . وتنصح له بأن يستمتع بالحياة ما استطاع ، وتنبؤه بأنه سيحزن عليها ، فليس من اليسير أن يتعزى الناس عمن كان يؤثرهم بالحب . فلما أتمت إملاء كتابها هم سكرتيرها الشيخ أن يقرأه عليها كعادته ، فلم يستطع لأنه كان يقطع قراءته بالبكاء . هنالك أحست هذه المرأة المتشائمة اليائسة التي أسرفت في سوء الظن بالناس ؛ أحست أن هذا السكرتير لم يكن يعمل عندها ليعيش . فقالت له بصوت خافت فيه نغمة الموت ، وفيه مع ذلك نغمة الرضى والغبطة أكنت تحبني إذا؟

هذه صورة من صور هذه المرأة وهي من غير شك أشد هذه الصور اتصالاً بالنفوس ، وتأثيراً بالقلوب . ولكن لهذه المرأة صوراً أخرى عظيمة الخطر جداً في حياة الأب الفرنسي . فقد كانت ناقدة ، ولها في أدباء فرنسا ، وفي كبار أدبائها خاصة آراء قيمة تثير الإعجاب لرقتها ولبراعة الصياغة التي كانت تعلن فيها . كانت تؤثر فولتير ، وكانت تضيق بروسو فانظر إلى هذه الجملة البديعة التي تنقد فيها أسلوب جان جاك : (إن لروسو حظاً من الوضوح ، ولكنه وضوح البرق ، وله حظ من الحرارة ولكنها حرارة الحمى) .

واتصلت هذه المرأة بأصحاب السياسة ، واتصلت بالعظماء والأشراف وكانت منهم ، وقد كتبت إليهم وتلقت منهم الكتب وقد صورتهم وصوروها ، فهذه ناحية أخرى من حياتها لها أثرها في توضيح التاريخ السياسي

والاجتماعي لفرنسا في القرن الثامن عشر وقبل الثورة
الفرنسية الكبرى .

وبعد فلعل أحسن ما كتب عن هذه المرأة إلى الآن
فصلان كتبهما سانت بوف في أحاديث الاثنين تستطيع أن
تقرأ أحدهما في الجزء الأول ، وثانيهما في الجزء الرابع
عشر ، فان أردت الإيجاز المقنع فاقراً الفصل الذي نشر
عنها في (مجلة العالمين) أول أغسطس ، فإن أبيت أن تتكلف
القراءة أو تشق على نفسك بالبحث فقدّر هذا الوصف
الذي كان يصفها به فولتير ، وفكر فيه فانه يعطيك منها
صورة قوية ، تملأ نفسك رحمة وإعجاباً . فقد كان فولتير
يسمّيها : (الضريبة المبصرة) .

حول قصيدة

في مساء يوم من أيام سنة ١٩٢٠ دخل الأديب الفرنسي جاك ريفير على صديقه الشاعر العظيم بول فاليري ، فرأى أمامه صورا مختلفة لقصيدة أنشأها ، أو قل لقصيدة كان ينشئها . فاختلس صورة من هذه الصور ، ثم خرج فنشر هذه الصورة في مجلة من المجلات الفرنسية الكبرى .

وهذه القصيدة هي (المقبرة البحرية) ويجب أن تعلم أن بول فاليري لا يتم أثراً من آثاره الفنية وإنما يتركه . وهو يفسر لنا هذا حين يتحدث إلينا في بعض ما كتب من الفصول ، بأن الشعراء وأصحاب الفن في العصور القديمة ، لم يكونوا يتمون أثراً من آثارهم ، وإنما كانوا يعملون فيه ينقحونه ، ويهذبونه ، ينقصون منه ، ويضيفون إليه ، ويلأثمون بين أجزائه ، يبتغون الكمال ما وجدوا إلى ابتغائه سبيلا . حتى إذا أكرهوا على تركه أسلموه إلى النار

أو أسلموه إلى الجمهور . فالنار والجمهور عند بول فاليري
وعند أصحاب الفن الأقربين سواء . كلاهما يمت الأثر
الفني بالقياس إلى مبدعه لأنه يختص نفسه بهذا الأثر
فيحرقه تحريقاً ويقطع الصلة بينه وبين صاحبه ، ويجعله
ملكاً لنفسه ، يتمثله كما يشاء أو كما يستطيع ويذوقه ،
 ويفهمه كما يريد ، أو كما تمكنه ملكاته الخاصة من الفهم
والذوق . وبول فاليري حريص على هذه السّنة الفنية
القديمة ، فهو لا يتم كما قلت قصيدة من الشعر ، ولا
فصلاً من النثر ، وإنما يمضي فيه مصلحاً مهذباً ، ساعياً إلى
هذه الغاية القريبة التي لا تدرك وهي الكمال . حتى
تضطره الظروف إلى أن يدع قصيدته أو فصله أو كتابه
لصديق مختلس كجاك ريفير أو لناشر ملح ، أو لأي ظرف
من الظروف التي تذيب آثار الشعراء والكتاب ، وتخرجها
من أيديهم إلى أيدي القراء .

وكذلك فرضت هذه القصيدة في صورتها المعروفة على صاحبها فرضاً، ولعله لو خير لاختار صورة أخرى من هذه الصور التي كانت بين يديه، ولكنه نظر ذات يوم، فإذا المجلة الفرنسية الجديدة تنشر له قصيدة (المقبرة البحرية) فلم يكن له بد من التسليم والإذعان.

على أن من العسير جداً أن تظفر في التاريخ الأدبي الفرنسي، بقصيدة كثر حولها الحوار وأشدت فيها الجدل، وتشعبت فيها الخصومة، كهذه القصيدة التي لا تزيد على أربعة وأربعين ومائة بيت. فقد انفق النقاد الفرنسيون أعواماً يدرسونها، ويحللونّها، ويلتمسون معانيها، وأغراضها، ومظاهر الحسن ودخائله فيها. ثم لا يتفقون على ذلك بل لا يتفقون على شيء من ذلك، يل يبلغ بهم الاختلاف أقصاه. فإذا بعضهم يرفع القصيدة إلى أرقى منازل الآيات الشعرية الخالدة وإذا بعضهم ينزل بها إلى حضيض السخف الذي لا ينبغي الوقوف عنده ولا

الالتفات إليه . وإذا الأمر يتجاوز المجلات والصحف الأدبية إلى الصحف اليومية الكبرى ، ثم يشتد الخلاف وتنظم الخصومة حتى يضطر ناقد من كبار النقاد إلى ان يبدأ بحثاً دقيقاً وتحقيقاً بعيد الأمد ، فيختار قطعتين من هذه القصيدة ، ويعرضهما على الأدباء والنقاد المعروفين يسألهم عما يفهمونه منهما ، وما يرونه فيهما من الرأي ، ويدعوه ذلك إلى أن يسألهم عن أصل من أصول الفن الشعري ، ظهر أنهم لم يكونوا يتفقون عليه بحال من الأحوال ، وهو الوضوح أهو ضرورة من ضرورات الشعر الجيد ، أم هو شيء يمكن ان يستغني عنه هذا الشعر؟ وإذا شئت الدقة والجلاء فقل أوجب أن يكون الشعر الجيد واضحاً جلياً يفهمه من قريب من سمعه أو قرأه ، أم يستطيع الشعر أن يكون جيداً وإن حال الغموض بينه وبين فهم القارئ والسامعين . ولا يكاد يبدأ هذا التحقيق حتى يعود الخلاف حول القصيدة وصاحبها كما كان حاداً عنيفاً

متشعباً . وكان بول فاليري في أثناء ذلك قد انتخب عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي . فيشر انتخابه حقد الحاقدين وحنق المحنقين ، ويزيد الخلاف حدة وعنفاً . وتستطيع أن تقول غير مبالغ ولا مسرف أن المثقفين الفرنسيين جميعاً قد شغلوا بهذه القصيدة وصاحبها أعوام ١٩٢٧ و ٢٨ و ٢٩ وانتهى أمر هذه القصيدة إلى السوربون ، وما أقل ما تعنى السوربون بشعر المعاصرين ، وإذا أستاذ من أساتذة الأدب فيها هو مسيو جوستاف كوهين يتخذها موضوعاً لدرسه في تفسير النصوص الأدبية ، وإذا هو يتخذها موضوعاً لكتاب سماه محاولة لتفسير المقبرة البحرية . كل هذه الحركة العنيفة والشاعر صامت لا يقول شيئاً ، ساكن لا يأتي شيئاً ، أو هو لا يقول ولا يأتي شيئاً يمس هذا الخلاف العنيف حتى اضطر صاحب التحقيق الذي أشرت إليه آنفاً أن يكتب إليه ينبئه بأن كثرة الذين أجابوا إلى ما ألقى إليهم من الأسئلة يعترفون بأن لقصيدته معنى ولكنهم

لا يتفقون على هذا المعنى ، وإنما يختلفون اختلافا شديداً في تحصيله ، ويسأله أن يبين ما أراد ليقطع الشك ويزيل الخلاف ، فلا يجيب الشاعر ويضطر كاتب آخر إلى أن يطالبه في صحيفة من الصحف الكبرى بأن يبين للناس ما أراد أن يقول في هذه القصيدة ، ليظهر من أخطأ من النقاد ومن أصاب ، ويصفه بالكبرياء ، والحرص على أن يغيظ النقاد ، ولكنه على ذلك كله لا يجيب حتى إذا ظهر كتاب أستاذ السوربون ، نظر الناس ، فإذا الشاعر قد قدم بين يدي هذا الكتاب بمقدمة بديعة ممتعة ، يصفها بعضهم بأنها مثيرة للدوار ، لكثرة ما تشتمل عليه من المعاني والآراء في وضوح لا يكشف الحجاب عنها كل الكشف ، وفي غموض لا يريح القراء من التأمل وإطالة البحث والتفكير . فإذا قرأت المقدمة البديعة الممتعة المثيرة للدوار ، لم يتبين فيها القارئ جواباً لهذه الأسئلة الملحة التي ألقاها النقاد على الشاعر يتمنون عليه فيها أن يبين لهم ما أراد ،

وإنما يجد القارئ في هذه المقدمة آراء مؤسفة من الوصول إلى
تحصيل المعاني التي أراد إليها الشاعر حين نظم قصيدته .
فهو يقول مثلاً : إن الناس يسألونني ماذا أردت أن أقول؟
فأنا لم أرد أن أقول شيئاً وإنما اعمل شيئاً ، ورغبتني في هذا
العمل هي التي قالت ما يقرءون ، وهو يقول مثلاً إن الأثر
الفني الذي يصدره الشاعر أو الكاتب أو غيرهما من
أصحاب الفن لا يكاد يخرج من يد منشئه حتى يصبح أداة
من الأدوات العامة يصرفها الناس كما يريدون أو كما
يستطيعون . ومعنى ذلك أن القصيدة إذا أذيعت بين
الناس ، فلكل واحد منهم أن يفهم منها ما أراد أو ما
استطاع . فإما ما أراد الشاعر فأمر مقصور عليه حين نظم ،
ولعله قد نسيه أو انصرف عنه إلى غيره من المعاني فلا
ينبغي أن يسأل عنه ولا أن يطالب بتبيينه للناس .

وأظرف وأظرف أن الشاعر يشني على الكتاب الذي
يفسر قصيدته فيقول : انه قرب هذه القصيدة إلى الشبان

من تلاميذه، وأحاط بخصائصها التي تتصل بما فيها من الموسيقى والانسجام. ولكنه يقول: أوفق الأستاذ الشارح إلى تحقيق المعاني التي قصد إليها الشاعر أم أخطأه هذا التوفيق؟

كل هذه الآراء وآراء أخرى للشاعر العظيم في هذه المقدمة الممتعة إن لم تبين المعاني التي أودعها قصيدته فهي تبين شيئاً آخر أظنه أقوم وأجلّ خطراً من هذه المعاني، وهو مذهب الشاعر في فن الشعر، وما ينبغي له من الارتفاع عن هذا الوضوح الذي يفسد الفن افساداً، ويقربه من الابتذال، فهو يرى مثلاً إن جمال الشعر يأتي من أنك تحدد اللذة الفنية في نفسك، كلما حددت قراءته ومن أنك تستكشف في القراءة الثانية من فنون الجمال ما لم تستكشفه في القراءة الاولى، بل تجد في كل قراءة فنوناً جديدة من الجمال لم تجدها في القراءات التي سبقتها، وأنت لا تجد هذه اللذة المتصلة المتنوعة إلا لأنك خليق أن

تستكشف في كل قراءة معنى جديداً يثير في نفسك شعوراً جديداً بالجمال ، وهو يرى مثلاً أن للشعر صفات تعصمه من الموت أو تعصمه من الموت القريب ، وهذه الصفات تتصل بوزنه وقوافيه وبهذه الصور الخاصة التي لا تجدها في النثر . وموت الأثر الفني عنده يأتي من فهم الناس له ، فأنت إذا قرأت كتاباً وفهمته فقد قتلته وقضيت عليه . فهناك إذا جهاد عنيف بين القارئ والمقروء ، فإذا فهم القارئ فقد غلب . وإنما الأثر الفني الخلق بهذا الاسم هو الذي يغلب قارئه ويعجزه ، ولكن دون أن يضطره إلى اليأس والقنوط . ومن هنا يرى شاعرنا العظيم أن النثر بطبيعة تكوينه أقرب إلى الموت وأدنى إلى الفناء ، لأنه أقرب إلى الفهم ، وأدنى إلى الهضم ، لا تعصمه هذه الدروع المتقنة التي نسميها الوزن والقافية ، والموسيقى والصور .

فإذا أضفت إلى هذه المقدمة ما كتبه شاعرنا العظيم في
مواضع مختلفة، وظروف مختلفة حول الشعر والنثر
والأدب عامة استطعت أن تلخص مذهبه في الشعر
الخالص أو في الشعر العالي كما يقولون. فالشعر عنده
كلام، ولكنه كلام ممتاز، وامتيازه لا يجب أن يأتيه من
معناه وحده بل، يجب أن يأتيه من صيغته قبل كل شيء،
فحقيقة الشعر إنما تلمس في صيغته وشكله، تلمس في
وزنه الذي يجب أن يبهز السمع ويؤثر فيه، تلمس في
انسجامه الذي يجب أن يثير في النفس لذة الموسيقى، أو لذة
أرقى من لذة الموسيقى لأنها تمس العقل والشعور والسمع
جميعاً، ثم تلمس في صورته التي تروع الخيال وتروع معه
الحسن أيضاً ثم تلمس قبل كل شيء وبعد كل شيء في
هذه الصفة التي لا أدري كيف أسميها أو أحدها، والتي
تضطرك إلى البحث والتفكير وإلى جهاد ما تقرأ في غير ملل
ولا يأس.

وطبيعي بعد أن ثار هذا الخلاف العنيف الطويل حول هذه القصيدة أن تتجاوز حدود فرنسا ، ويعنى بها النقاد الأجانب كما عني بها الفرنسيون ، كما يعنون بكل ما يصدر هذا الشاعر من الآثار . فقد ترجمت هذه القصيدة أربع مرات في اللغة الإسبانية ، وثلاثاً في اللغة الإنجليزية ، وثلاثاً في اللغة الألمانية ولكن الغريب أنها ترجمت في اللغة الفرنسية نفسها شعراً . ترجمها الكولونيل جودشو ، وأرسلها إلى الشاعر ، فكتب إليه الشاعر يقول : اشكر لك خالص الشكر ما أرسلت إليّ من ترجمة المقبرة البحرية إلى لغة أقرب إلى الوضوح . وسأضيف هذه الترجمة إلى التراجم الإسبانية الأربع ، وإلى التراجم الإنجليزية الثلاث ، وإلى التراجم الألمانية الثلاث ، وإلى تراجم أخرى لهذه القصيدة قد وقعت إلى . وقد أعجبني جداً ما بذلت من الجهد لما ظهر فيه من الحرص على أن تحتفظ ما استطعت ببعض الأصل ، وإذا كنت قد استطعت أن تترجم هذه

القصيدة فليست هي إذن من الغموض بحيث يقال . فان قصيدة مظلمة حقاً تحتاج إلى تغيير أعمق من هذا التغيير الذي أحدثته لتصبح ترجمتها أمراً ميسوراً . فأنا مدين لك بهذا الدليل الواضح على أن المقبرة البحرية شيء يمكن فهمه إذا عنى القارئ بعض العناية بقراءتها ورغب بعض الرغبة في فهمها .

وأظن أن السخرية في هذا الكتاب أوضح من أن تحتاج إلى أن أدل عليها ، ولعلك تسألني أن أترجم لك هذه القصيدة كلها أو بعضها ، ولكني معتذر من ذلك لأمرين . الأول : أنني أجد في قراءة القصيدة لذة راقية قوية حقاً ، ولكني لا أستطيع أن أقول أنني أفهمها على وجهها ، وليس على من ذلك بأس ما دام النقاد والأدباء الفرنسيون وهم أعلم مني طبعاً بلغتهم وأدبهم يختلفون في فهمها إلى هذا الحد . والثاني : أن بول فاليري نفسه يرى أن ترجمة الشعر إلى النثر قتل لهذا الشعر ، وتمثيل به ومحو لآيات

الجمال فيه ، وأعوذ بالله أن أقترف هذه الجناية أو أتورط في هذا الإثم ، ولكن في مصر شعراء أو أنا أرجو أن يكون في مصر شعراء يحسنون الفرنسية فهل لهم أن يستبقوا في ترجمة هذه القصيدة شعراً عربياً ، وهل لأصدقائنا أصحاب الرسالة أن يجعلوا للفائز في هذه المسابقة من الشعراء جزاء يلائم ما سيبدله من الجهد الذي سيكون عنيفاً حقاً ، ولكنه سيضع أمام قراء اللغة العربية نموذجاً من أرقى وأروع نماذج الشعر الحديث .

عدلي... ..

يجب أن يكون الناس قد انتهوا من الحرج والضيق ،
ومن العسر وسوء الحال إلى حيث أصبحوا ينكرون
أنفسهم ويمرون سراعاً ببعض الأحداث الجسام التي كانوا
يقفون عندها فيطيلون الوقوف ، ويفكرون فيها فيطيلون
التفكير . ويتذوقون آلامها متمهلين متعمقين كأنهم يجدون
في تذوقها على مهل وفي أناة شيئاً من اللذة يدعوهم إلى
استبقائها ومد أسبابها . فهم كانوا إذا ألم بهم الحدث من
هذه الأحداث وجموا له وجوماً طويلاً ثقيلاً ، ثم يذهب
عنهم الوجوم شيئاً فشيئاً فيحسون لذع هذه اليقظة المؤلمة ،
ثم يفيقون فيقدرون خطر الحدث الذي أصابهم ،
ويذكرون من أصابهم فيه ويطيلون ذكره ، ويتمثلون
مواقفه المختلفة ، ثم ينظرون إلى حاضره ومستقبلهم
ويتصورون فقيدهم مواجهها لظروف الحاضر والمستقبل ،

ويسألون أنفسهم عن مواقفه التي كان يمكن أن يقف من هذه الظروف لو امتدت له أسباب الحياة . ويتخذون من هذا التفكير المتنوع الطويل سبلاً إلى الألم متنوعة ، ووسائل إلى الحزن متباينة ، تأبى نفوسهم أن تقطع الصلة بينها وبين من فقدت ، حتى إذا عملت الأيام عملها ، وتكاثرت خطوب الحياة على ما يملأ النفوس من ذكرى ، فالت أن تسدل عليه من النسيان ستاراً ، جاهدت هذه النفوس ما وسعها الجهاد ، لتقاوم الظروف ، وتمنع النسيان وتستبقي شخص الفقيده ماثلاً أمامها تنظر إليه وتحزن عليه وتبكيه أو تبكي نفسها فيه .

كذلك كان الناس حين كانت حياتهم حياة تستحق هذا الأسم ، وحين كانت أيامهم أياماً ، أما الآن فقد تغير الناس لأن حياتهم تغيرت ، وقد تبدل الناس لأن أيامهم تبدلت ، فقدت الحياة في نفوسهم قيمتها ، فأصبحوا لا يذوقون لذتها وآلامها الا مسرعين . وفقدت الأيام في

نفوسهم قيمتها ، فأصبحوا لا يقفون عند أحداثها وخطوبها إلا لماما . كثرت عليهم الأحداث والخطوب ، وثقلت عليهم الأرزاء والمحن ، وعجزت أعصابهم عن المقاومة ، فعجزت نفوسهم عن الحزن كما عجزت نفوسهم عن الفرح . أصبح كل واحد منهم وكأنه الكرة الخفيفة الوثابة تتدافعها الحوادث ، وتتقاذفها الكوارث ، فلا تكاد تقع على حادثة أو كارثة ، أو لا تكاد تقع عليها حادثة أو كارثة ، حتى تثب وتقفز بسرعة ، خفيفة ، عفيفة ، تبتغي حادثة أخرى و كارثة أخرى ، أو تبتغيها حادثة أخرى و كارثة أخرى .

وهذا وحده هو الذي يفسر موقف الناس من هذا الخطب العظيم الذي ألم بهم حين نعت إليهم الأنباء عدلي يكن رحمه الله ، فقد وقعت هذه الأنباء عليهم وقع الصواعق ، فوجئوا لها ، ولكنهم أفاقوا مسرعين من هذا الوجوم ، لأنهم تعودوا وقع الصواعق في هذه الأيام .

أفاقوا وجزعوا، واشتد عليهم الجزع، حتى كاد يشبه اليأس، ولكن جزعهم كان قصيراً محدود الأمد، فلم يمض يوم وبعض يوم حتى شغلوا عن هذا الخطب ولم ينسوه، وإنما صرفوا عنه صرفاً، صرفتهم عنه هذه الضرورات القاسية والآلام المألحة التي لا يعرفون كيف يخلصون منها أو يشتون لها. وما رأيك في قوم لا يستقبلون النهار إذا أشرقت شمسهم إلا بالخوف من بياضه، ولا يستقبلون الليل إذا نشر ظلمته على الأرض إلا بالإشفاق من سواده، يصبحون وهم يجهلون إلى أين يدفعهم النهار المضيء، ويمسون وهم يجهلون إلى أين يذهب بهم الليل المظلم.

كيف تريد من هؤلاء الناس أن يتلوا مرارة الحزن ولذع الألم، أو يستعذبوا حلاوة الفرح وموقع السرور من نفوسهم؟ لقد فقدوا أو كادوا يفقدون هذه الملكات القوية الرقيقة الحساسة التي كانت تنقل إلى نفوسهم صور الحياة كما هي. فهي تمكنهم من أن يتعظوا بما يبعث العظة منها،

ويتهجوا بما يثير الابتهاج، هاهم أولاء يفكرون في
أزماتهم على اختلافها، ويجدون في التخلص من هذه
الأزمات أو الإذعان لها، ليس منهم إلا طالب أو
مطلوب، ليس منهم إلا غالب أو مغلوب، ليس منهم إلا
بائس أو منتظر للبؤس، وليس منهم إلا محرج أو مدفوع
إلى الحرج، فهم معذورون إذا صرفتهم الحوادث صرفاً عن
ذكر هذا الفقيد العظيم، وعن إطالة ذكره والتحدث فيه،
وهو مع ذلك مازال في دار الغربة حيث قبضه الله إليه، لم
يعبر جثمانه البحر بعد إلى وطنه ليوارى في ترابه، ويدفن
في ثراه المقدس.

هم معذورون. وعدلي رحمه الله أشد الناس قبولاً
لعذرهم هذا، لأنه كان أحسن الناس تقديراً لحالهم هذه.
ولأنه أشد الناس عطفاً عليهم وبراً بهم، ولأنه كان على
امتيازه وأرستقراطيته الظاهرة يشاركهم فيما يجدون،
ويقاسمهم ما يشعرون به من الحزن والألم وسوء الحال.

والمصريون أكرم على أنفسهم من أن يكون سكوتهم عن عدلي بعد موته بقليل نسياناً له ، أو تقصيراً في ذاته ، فليس عدلي من الأشخاص الذين يقدر عليهم النسيان ، وليس المصريون من الشعوب التي يهون عليها الجميل . ومهما يكن الأمر في ذلك فان ذاكرة التاريخ أقوى وأثبت وأعمق من ذاكرة الناس ؛ وسيدكر التاريخ دائماً أن أربعة من المصريين كانوا أئمة النهضة الوطنية الاستقلالية ، أو قل كانوا أئمة الثورة المصرية التي شبت نارها بعد أن خمدت جذوة الحرب ، والتي هبت فيها الأمة المصرية تطالب بأن يعرف الناس لها أنها أمة حرة كريمة تريد أن تعيش في بلد حر كريم . كان هؤلاء الأئمة الأربعة عنوان الحياة السياسية الجديدة في مصر ثم في الشرق كله ، وسيظلون عنواناً لهذه الحياة على اختلاف طبائعهم وأمزجتهم ، وعلى تبأين ميولهم وأهوائهم ، وعلى ما بين شخصياتهم العظيمة الفذة من الاختلاف ، ولن يستطيع مؤرخ أن

يصور حرية مصر وحرية الشرق في هذه القطعة من الزمن التي تبتدىء بعد الحرب دون أن يعتمد في تصويره على هؤلاء الأئمة الأربعة في السياسة: سعد ورشديوثروت وعدلي رحمهم الله!

كان سعد من هذه الثورة المصرية الشرقية بمكان الجذوة القوية المضطربة التي لا يعرف الخمود إليها سبيلا، والتي لا يمسها شيء إلا اضطرم، ولا يدنو منها شيء إلا التهب. والتي تبعث أشعتها القوية المحرقة إلى أبعد الأماكن منها فتذكي فيها ناراً، وتثير في جوها أواراً، وتخرج أهلها عن أطوارهم، وتدفعهم إلى حب الحياة بعد الموت، والعزة بعد الذل، والاستقلال بعد الخضوع والإذعان.

وكان رشدي من هذه الثورة بمكان الفقيه الذي يعرف كيف يستخرج الحق من الشبه، ويرد إليه حظه من الوضوح الذي لا يدع للشك فيه سبيلا، ثم يدافع عنه

بالحجة الساطعة والرهان المستقيم والعاطفة الصادقة
الحارة .

وكان ثروت من هذه الثورة بمكان المدبر الماهر ذي
الحيلة الواسعة والمدخل الخفي والمخرج اللطيف كلما
تحرجت المواقف وتعددت الأمور .

وكان عدلي من هذه الثورة بمكان العقل الهادئ الرزين
الحكيم ، الذي لا يقوم إلا على بصيرة ، ولا يقبل إلا على
ثقة ، وبعد تفكير طويل ، وروية متصلة ، ولا يأتي من
الأمر شيئاً إلا في أناة ووقار وهدوء ، قلما تظفر بمثلها عند
الزعماء . . . ولو أن الثورة المصرية الشرقية فقدت واحداً
من هؤلاء الأربعة لما كان لها شكلها الذي نعرفها به ، ولا
طبعت بهذا الطابع الذي يميزها من غيرها من الثورات .

كانت أمزجة هؤلاء الأئمة الأربعة عناصر تكونت منها
هذه الثورة المصرية الشرقية . وقد اختلفوا واختصموا ،
وجاهد بعضهم بعضاً جهاداً عنيفاً . ولكن مزاج الثورة

المصرية كان في حاجة قوية إلى هذا الخصام والجهاد ليحيا ويقوى ويثبت للأحداث ، ويبقى على رغم الخطوب . ثم أذن الله لهؤلاء المختلفين أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من ائتلاف ، ويثوبوا إلى ما كان بينهم من مودة وحب ، ومن تعاون واتفاق ، فصفا بعضهم لبعض ، وسعى بعضهم إلى بعض ، ورضى بعضهم عن بعض ، ورضيت الأمة عنهم جميعا ، ورضى الله عنهم فأثرهم برحمته واختارهم إلى جواره ، يسعى بعضهم إلى أثر بعض إلى دار الخلود وقد أدى واجبه ، ونهض بما كان ينبغي أن ينهض به من الحق . وكان سعد أسبقهم إلى الخلود ، وكان عدلي آخرهم انتقالا إلى دار الخلود . ولقد تحدث الناس عن سعد ورشدي وثروت فأطالوا الحديث ، وسيتحدثون ، وستكون أحاديثهم أجل وأوضح ، وأدل على عظمة هؤلاء نفر كلما بعد بيننا وبينهم العهد ، ومضت على وفاتهم الأيام ، ولكن الناس لم يتحدثوا بعد عن عدلي لأنه عاش إلى هذا

العهد ، فكانت حياته مانعة من الحديث فيه ، ولأنه مات في هذا العهد فكانت المحن المقيمة صارفة عن إطالة الحديث فيه .

وليس الحديث عن عدلي سهلا ولا يسيرا ، فأنت لا تكاد تعرض لخصاله حتى تعجبك كلها ، وحتى تدعوك كلها إلى أن تحمده وتثني عليه . وإذا أنت حائر لا تدري ماذا تأخذ منها وماذا تدع ، ولكن نواحي ثلاثا من حياة هذا الرجل تفرض نفسها على الكتاب والمفكرين فرضا . فإما أولاها فهي امتياز الشخص في حياته الخلقية ، وفي ما كان بينه وبين الناس من صلة . فعدي أقل الناس تعرضا للنقد من هذه الناحية : كان رضي الخلق ، وكانت هذه الخصلة أظهر خصاله وأوضحها ، ولكنها على ذلك لم تكن تسبق إلى الناس ولا تظهر نفسها لهم ، ولا تطمعهم في صاحبها ، وإنما كانت تحيط نفسها بسياج من الأنفة والترفع ، يحسبه الناس ضرباً من الغطرسة ، ولونا من الكبرياء ، فيها بونه

وينأون عنه ، فإذا أتيح لهم أن يدنوا من رجل ويخلصوا إلى نفسه ، لم يجدوا غطرسة ولا كبرياء ، وإنما وجدوا أنفة وعزة وترفعاً عن الابتذال . ووجدوا من وراء هذا كله نفساً صافية نقية ، وقلبا طاهرا وفيا ، وضميرا كريما حيا . وظهر هذا كله في معاشرة حلوة ، وحديث عذب ولسان عفيف ، وصلات ترفع الذين يدنون من عدلي إلى حيث هو ، ولا تهبط بعدلي إلى حيث يكون المتصلون به والساعون إليه .

والناحية الثانية مذهبه السياسي . فقد كان عدلي كغيره من أصحابه مؤمنا بحق مصر في الاستقلال ، حريصا على أن تظفر مصر بهذا الحق ، لم يكن يتهم في ذلك أحد . وكان عدلي كأصحابه يرى أن المفاوضة مع الإنجليز قد تؤدي إلى الظفر بهذا الحق ، وتنتهي بمصر إلى ما تريد . ولكن طريقه في تنفيذ مذهبه هذا وإخراجه إلى الحياة العملية هي التي تميزه من غيره ، وهي التي تظهر طبيعته

ومزاجه ، كأوضح ما تكون الطبيعة والمزاج . فلم يكن عدلي صاحب قوة وعنف ، ولم يكن عدلي قادراً على أن يوجد بينه وبين الشعب على اختلاف طبقاته هذه الصلة القوية التي تجعله مرآة للشعب من جهة ، وملهماً للشعب من جهة أخرى . إنما كان عدلي رجلاً يحب الشعب ويؤمن به ، ويحرص على حقه دون أن يلهمه أو يستلهمه . كان يصدر عن عقله وتفكيره الهادئ الرزين ، أكثر مما يصدر عن عواطفه الحارة وشعوره العنيف . وكان لا يحسن الحديث إلى الشعب ، لأنه لم يكن يجد هذه الكلمات والجميل الساحرة التي تنفذ إلى قلوب الشعب . وكان كل ما يستطيع أن يرى ويسمع ويفكر ، ثم يعمل تاركاً لغيره ما لا يقدر عليه من إلهام الشعب واستلهامه . فلما ألف وزارته الأولى وأعلن برنامج هذه الوزارة متفقاً عليه مع الوفد ، كان هذا البرنامج مظهراً واضحاً قوياً ، لطبيعة هذا الرجل المستقيمة ومذهبه الصحيح في فهم حقوق الشعب

وتقديرها . فأنظر إليه يحرص في هذا البرنامج حرصا شديدا على أمرين : الأول أن يستخلص لمصر حقوقها من الإنجليز بالمفاوضة ، والثاني أن يعرض على الشعب المصري نتيجة المفاوضة لينظر فيها ويقرها ، وأن يكون هذا الشعب ممثلا في جمعية وطنية لا تقف مهمتها عند إقرار المعاهدة وتنظيم العلاقة بين مصر والإنجليز ، بل تتجاوز هذا إلى شيء عظيم الخطر حقاً وهو وضع الدستور ، وتنظيم سلطة الشعب ، وتنظيم العلاقة بين السلطة التشريعية وغيرها من السلطات التي يتكون منها سلطان الدولة ؛ ومعنى ذلك أن عدلي كان يؤمن بأن الأمة وحدها مصدر السلطات ، وبأنها ما دامت كذلك فهي التي يجب أن تضع الدستور وأن تعلنه لا أن تتلقاه . ومن يدري ؟ لو أن الظروف واثت عدلي ومكنته من تنفيذ برنامجه لعل مصر أن تكون قادرة على أن تجتنب كثيرا من الأزمات الداخلية التي ألت بها فجرت عليها شرا كثيرا .

ولست أدري لعل موضع الخطأ في برنامج عدلي رحمه الله أنه جعل دعوة الجمعية الوطنية نتيجة للمفاوضات لا مقدمة لها . فلما لم تنجح مفاوضاته لم تدع الجمعية الوطنية ، وتلقت مصر الدستور ولم تصدره . ولكن أكان عدلي قادرا حقا على أن يدعو الجمعية الوطنية قبل المفاوضة ، وقبل أن يستخلص لمصر حريتها من الإنجليز؟ وماذا عسى أن تكون قيمة هذه الجمعية الوطنية التي تدعي وتعتقد وتشرع الدستور وغير الدستور في ظل الحماية الأجنبية؟ وماذا يكون موقف هذه الجمعية الوطنية من الإنجليز؟ وماذا يكون موقف الإنجليز منها إن شجر بينها وبينهم خلاف : مهما يكن من شيء ، فقد كان فهم عدلي لحقوق الشعب وتصويره لهذه الحقوق ملائمين أشد الملاءمة لأرقى المثل الدستورية العليا .

الناحية الثالثة : وفاء هذا الرجل العظيم لمذهبه في السياسة ، ورأيه في حق الشعب ، وثباته على هذا المذهب ،

وامتناعه أن يتحول عنه مع الظروف ، فقد أخفق في
مفاوضة الإنجليز واستقال وعجز عن أن يدعو الجمعية
الوطنية ، ولكنه قضى بقية حياته مؤمنا بأن المفاوضة هي
أوضح السبل إلى الاستقلال ، مؤمنا بأن سلطة الشعب هي
القوام الشرعي الوحيد لكل حكومة ، وهي العماد الشرعي
الوحيد الذي يجب أن تعتمد عليه الحكومات فيما تأتي من
الأمر في السياسة الداخلية أو الخارجية ؛ ولم يكذب صدر
الدستور حتى عرف عدلي كيف يرضي نفسه وضميره في
السياسة ، فتقدم إلى أمته في الانتخابات ؛ فلما قضت عليه
أذعن لقضائها ورضي به ، لا يحمل لأمته غلا ، ولا يضم
لها حقدا ، ولا ينكر عليها أنها انصرفت عنه إلى غيره ، ولم
تمنحه ثقتها وهو على ذلك كله مؤمن أصدق الإيمان بأن
هذا الدستور الذي صدر لا يفيد الذين اقساموا على
الإخلاص له وحدهم ، وإنما يقيد المصريين جميعا وهو من
بينهم . ومن هنا تستطيع أن تفهم أن عدلي قد أبى كل

الآباء بعد صدور الدستور أن يؤلف وزارة، أو يؤيد وزارة أو يشترك في وزارة لا تعتمد في صراحة وإخلاص على الدستور؛ ومن هنا نستطيع أن نفهم إصراره إلى الائتلاف مع سعد حين دعي إليه، وإخلاصه في تأييد هذا الائتلاف، وقبوله رئاسة الوزارة في هذا الائتلاف، لأن هذا الائتلاف كان قوامه إرجاع الحياة الدستورية، وكان اعتماده على الدستور، وكان بقاؤه رهيناً ببقاء الدستور؛ ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف اعتزل السياسة وانصرف عنها حين وقف الدستور، وكيف أسرع إلى قبول الوزارة حين عرضت عليه ليرد الدستور. ثم من هنا نفهم أيضاً كيف أنكر ما كان من تغيير الدستور القديم، وكيف أسرع إلى الاحتجاج على هذا التغيير، وكيف أسرع إلى التعاون مع المؤتمر الوطني الذي أنكر ما حدث من تغيير، وألح في أن ترد الأمور إلى نصابها، كيف أنفق بقية حياته عزيزاً كريماً أبياً يرقب الحوادث ويتهز الفرص وينتظر أن يدعوه

الواجب الوطني فيستجيب له . ولكن دعوة الموت سبقت
دعوة الواجب الوطني ، فأسرع عدلي إلى حيث أراد له من
هذه الحياة الخالدة . حياة الكرامة والنعيم . وتريد الأقدار
أن يموت عدلي حيث مات صديقه الحميم ثروت في باريس
بعيدا عن الوطن ، وتريد الأقدار أن يموت عدلي كما مات
صديقه الحميم ثروت ومصر في أزمة سياسية عنيفة تعتمد
عليه وتعقد به أوسع الآمال . فإذا هي تمتحن فيه وتحرم
معونته ، ثم تريد الأقدار أن ينتقل عدلي إلى وطنه في نفس
السفينة التي نقل فيها ثروت ، وهي (البروفيدنس) ! أفترى
الأقدار قد رعت حرمة هذه المودة الصادقة الخالصة التي
كانت بين هذين الرجلين العظيمين ، فأرادت أن تلائم
بينهما في الموت كما لاءمت بينهما في الحياة؟

من دار إلى دار

قال أستاذ البيان لتلميذه : زعموا أن البيان يعين صاحبه على أن يؤدي المعنى بعبارات مختلفة فيها الحقيقة والمجاز ، وفيها التشبيه والاستعارة ، وفيها الكناية والتمثيل وفيها ما نعلم وما لا نعلم من الوان الجمال اللفظي ، هذه التي عن قصد ، وتأتي على غير عمد ، كأنما يوحى بها إلى الكتاب المبين . ولكنك تعلم أنا لا نذهب في فهم البيان هذا المذهب ، ولا نقصد به إلى هذا النحو ، وإنما نذهب به مذهباً اعم من هذا واشمل ، كان يذهب إليه القدماء حين كانوا يتخذون البيان وسيلة إلى أداء ما يعرض للكاتب من الأغراض والمعاني في أشد الألفاظ ملاءمة لأغراضه ومعانيه ، ولعلك تذكر انهم كانوا يذهبون في تعليم الطلاب فن البيان مذهباً طريفاً كثيراً ما كان يضيق به المتكلفون من أصحاب الأخلاق ، والذي لا يعلمون إلا

ظاهرا من الفلسفة . قال التلميذ : نعم هو هذا المذهب الذي كان يحمل الأستاذ على أن يطرق أمام تلاميذه ويحمل تلاميذه على أن يطرقوا أشد الموضوعات تناقضا وأعظمها اختلافا فيؤدوها كأنهم يؤمنون بها أقوى الايمان ، ويقتنعون بها أشد الاقتناع . وكانت هذه بدعة استحدثتها السوفسطائية ثم ورثها عنهم أصحاب البيان فلم يغيروها ، وإنما أمعنوا فيها إمعانا . وكتاب أرسططاليس في الخطابة حافل بذلك . وقد أبلى الجاحظ في هذا النحو من تعليم البيان بلاء حسنا ، وقد ألف أساتذة اللغة والبيان في هذا النحو من الأدب كتباً لا تخلو من لذة ومتاع ، فيها مدح الشيء الواحد وذمه ، وفيها مدح النقيضين وذم النقيضين ، وفيها . . . قال الأستاذ حسبك ، فقد أرى أن أشهر الصيف وما كان فيها من ارتحال وطواف ، ومن اختلاف البيئات عليك وترامي أطراف الأرض بك لم تنسك ما أنفقنا فيه من أشهر الربيع من الدرس والبحث ، فأنا نريد

الآن أن نبتدى من حيث انتهينا ، ونغضي من حيث وقفنا ، ونعود إلى ما كنا فيه من التمرين . فاختر لنا موضوعا واحدا يثير الضحك ويثير الرثاء . يثير الشماتة ويثير الرحمة . يبعث في النفوس مرحا وابتهاجا ويملا القلوب كآبة وحزنا ، وهو على ذلك كله واحد لا يتغير ، وإنما يتغير وجهة النظر إليه ونحو التفكير فيه ، وأن الشيء الواحد قد يخالف نفسه ويباينها باختلاف الجهات التي تنظر إليه منها ، والطرق التي تسلكها إلى فهمه والوصول إليه . قال التلميذ فأني لست في حاجة إلى أن أجد وأكد ، أو ألتمس واختار ، لأن الموضوع ماثل أمامي شهدته أمس فأثار في نفسي هذه العواطف ، المختلفة ، وبعث في قلبي هذه الألوان المتباينة من الشعور ، وكان المتعمقون في البيان يسرفون على أنفسهم وعلى تلاميذهم وعلى الفن حين كانوا يجتنبون ما يحدث بين أيديهم من الحوادث ، ويختلف عليهم وعلى أمثالهم من الخطوب ، ويلتمسون

الموضوعات من عند أنفسهم يخلقونها خلقاً، فيصيون حيناً ويخطئون أحياناً، ويعيشون في عالم الخيال على كل حال، مع أنهم لو نظروا فيما حولهم من الأحياء والأشياء لما احتاجوا إلى هذا الكد والجد، ولما بعدوا بأنفسهم وتلاميذهم عن مواضع الحق والصدق والصواب، ولما نقلوا الأدب من هذا العالم المعروف الذي يضرب فيه إلا الوهم، ولما قطعوا الصلة بين الأدب الذي يجب أن يكون صورة الحياة وبين الناس الذين يجب أن يتخذوه مرآة يرون فيها أنفسهم وحياتهم كما هي أو كما يحبون أن تكون، أو كما يكرهون أن تكون قال الأستاذ: هات موضوعك ولا تمنعني في الاستطراد، فقد علمت وقد أنبأتك بأني علمت أن أشهر الصيف لم تنسك دروس الربيع. قال التلميذ: فان الموضوع الذي شهدته أمس موضوع ويثير من المعاني ما لم تشأ، ويلهم ما أحببت من الخواطر ما لا تحب، يبعث الابتسام أن شئت أن تبتسم، ويبعث العبوس أن

أحببت أن تعبس ، وقد يكرهك على الابتسام وأنت عابس ، وقد يكرهك على العبوس وأنت مبتسم ، وقد لا يقف بك عند الابتسام ، بل يغرقك في الضحك إغراقاً ، وقد لا يقف بك عند العبوس بل يدفعك إلى البكاء دفعاً ، وقد يقفك من الابتسام والعبوس ومن الضحك والبكاء موقفاً بين ذلك ، فيه هدوء وعجب ، وفيه رضى وسخط يضطربان في النفس ولا تظهر آثارهما على الوجه قال الأستاذ كفكف من هذا السيل اللفظي المتدفق ، واقصد بنا إلى ما نريد . فقد علمت أن أشهر الصيف لم تنسك دروس الربيع في المعاني ، وقد علمت أيضاً إنها لم تنسك دروس الربيع في الألفاظ ، وقد علمت أنك ما زلت قادراً على أن تجيد هذا الفن الذي يمكن الكاتب أو المتكلم من أن يقول فيطيل دون أن يؤدي معنى أو يدل على شيء . قال التلميذ : وكأنك تنكر هذا الفن أو تسخر منه أو تزعم أن جمال الكلام لا يأتي من الكلام نفسه ، وأن الألفاظ ليست

على حظ من الجمال الذاتي الذي يأتي من اتساقها والتآمها وانسجامها، قال الأستاذ: دعنا من كل هذا العبث واقصد بنا إلى ما نريد فقد نعود في يوم آخر إلى حديث الألفاظ والمعاني وما يجب أن يكون بينهما من صلة، وما يجب أن يقسم بينهما من الجمال.

ولكن اذكر أن كنت نسيت أنك شهدت أمس موضوعاً واحداً يثير الضحك ويثير الرثاء فحدثني عن هذا الموضوع، كيف أثار الضحك؟ وكيف أثار الرثاء؟ قال التلميذ: وكيف أنسى موضوعاً لا يمكن أن يعدو عليه النسيان؟ وما رأيك في أديب خلق ليكتب، ويقول فيقضي عليه فجأة إلا يكتب ولا يقول؟ خلق ليفكر ويرقى بتفكيره إلى السماء فيجذب إلى الأرض جذباً، ويكره على البقاء فيها إكراها، ويؤخذ بالحياة مع أهلها أخذاً، خلق ليقرأ فيقضى عليه فجأة إلا يقرأ، خلق أطول الناس بالكلام لساناً، وأجراًهم بالقلم يداً، وأسرعهم إلى المعاني نفساً،

وأخصبهم بالخواطر ذهنا : فيعقد لسانه وتغل يده وتقيد نفسه ويجذب ذهنه . خلق واضح الجبين باسم الثغر مبسوط الأسارير ، تضطرب في نفسه الغنية معان غزيرة فيظهر اضطراب هذه المعاني على وجهه ، فإذا هو متحرك الهيئة دائماً لا تكاد تنظر إلى محياه حتى ترى له شكلاً جديداً يصور معنى جديداً ، يضطرب في تلك النفس التي لا تهدأ ولا تستقر فيقضي على هيئته أن تسكن ، وعلى وجهه أن يتخذ صورة بعينها جامدة مستقرة لازمة لا تتحرك ولا تنتقل ولا تزول .

قال الأستاذ وماذا تنكر من أمر هذا الأديب؟ إنما هو صورة من صور برومفيوس الذي كان حركة متصلة منتجة خصبة ، سريعة لبقة ، تعلم الناس في غير انقطاع . وتسلك إلى تعليمهم كل السبل ، وتبتغي إليه كل وسيلة ، حتى لم تتخرج من أن تحتلس نار الآلهة اختلاصاً فتهدّيها إلى الناس وتمنحهم بذلك الحضارة والعلم والفن وتغنيهم أو تكاد

تغنيهم عن (زوس) وأصحابه من سكان الأولمب ، فغضب عليه زوس وضاق به وأزمع أن يعاقبه على ما جنى ، فشدّه إلى صخرته تلك في القوقاز وقضي عليه أن يظل طوال الدهر مغلولاً . وقد كانت الحركة جوهره عاجزاً ، وقد كانت القدرة حقيقة لا يملك لنفسه ولا للناس شيئاً ، لا يدفع عن نفسه ولا عن الناس شيئاً ، يزوره النسر الذي وكل به من حين إلى حين ، فينهش كبده نهشاً ، وهو يرى ذلك ويألم له أشد الألم ولا يستطيع له دفعاً ، يدعو الحرية فلا تستجيب له ، لأن زوس قد كفها عنه ، يدعو الموت فلا تستجيب له ، لان الأقدار قد كتبت له الخلود . وقد صور ايسكولوس حال برمثيوس هذا تصويراً بديعاً ألهم من جاء بعده من الكتاب والشعراء ، والمثاليين والمصورين والموسيقين . وقد أثار ايسكولوس في تصويره ضحك الذين قست قلوبهم ، ورثاء الذين رقت نفوسهم كما أثار معاني أخرى أقوم وأخصب وأبقى من الضحك والرثاء .

قال التلميذ : لم أقصد إلى برومثيوس ولم أفكر فيه ، وهل تضمن أنني رأيته أمس ولم أذهب إلى القوقاز وإنما أنا معك في القاهرة ، ولعلي أن ذهبت إلى القوقاز فلا أرى الصخرة ولا قرينها فلم يحدثنا عنهما أحد من الذين زاروا تلك البلاد بعد ايسكولوس . قال الأستاذ فهي صورة من صور برومثيوس قصدت إليها واتخذتها نموذجاً لهذا النحو من البيان كما كان يفعل القدماء . قال التلميذ لم أفكر في برومثيوس ولم أقصد إلى تقليد ايسكولوس ، وإنما هو شيء شهدته أمس . قال الأستاذ وماذا شهدت ؟ قال التلميذ شهدت صديقنا فلانا وقد أرادت له ظروف الحياة أن ينتقل من دار إلى دار . قال الأستاذ وقد اغرق في الضحك ما ابعده هذه الصورة التي تحدثني عنها من تلك الصورة التي كنت أذكرك بها ! وأين يكون صديقنا فلان حين تنقله الظروف من دار إلى دار ، من برومثيوس حين يشده كبير الآلهة إلى صخرة القوقاز ، قال التلميذ فقد أثار

صديقنا فلان في نفسك الضحك لأن صورته ذكرت بك بتلك الصورة الضخمة العظيمة التي نصبها أبو التراجيديا للناس فلما انحدرت منها إلى هذا الشخص الضئيل النحيل الذي كان يقيم في طرف من أطراف القاهرة فانتقل إلى طرف آخر لم تملك نفسك أن أغرقت في الضحك إغراقاً. ومع ذلك فلو قد رأيته أمس كاسف البال كئيب الوجه محزون القلب معقود اللسان مقيد الرجل مغلول اليد، محصوراً بين طائفة من الأثاث وأدوات البيت، مختلفة أشد الاختلاف، متباينة أشد التباين، فيها الكبير والصغير، فيها الأنيق والدميم، قد جمعت حوله جميعاً، وكدست حوله تكديساً، وقد وضع هو بينها وضعا على كرسي أو شيء يشبه الكرسي، وقيل له أقم لا ترم حتى يأذن الله أو يأذن العمال لك بالانتقال، وهو مقيم لا يريم، لا يستطيع أن يقول شيئاً، ولا ينبغي أن يقول شيئاً، لأنه لا يفهم مما حوله شيئاً، يريد أن يخلو إلى نفسه ويعيش مع خواطره،

وإذا هو مصروف عن ضميره صرفا بهذه الأصوات العنيفة المختلفة التي تأخذ من كل مكان، والتي تؤلف من حوله نوعا فجاء فظا غليظا من الموسيقى، فيه أصوات العمال على اختلافها، واصطدام الاثاث، ووقعه على الأرض، وهذا الصوت الذي يغيط ويهيج الأعصاب ويأتي من جر الأشياء على الخشب حيناً وعلى الحجر حيناً آخر، وخفق الأقدام وتداعي الخدم، وتناهي الحمالين وما شئت مما يحصر وما لا يحصر، من هذه الضوضاء الغريبة التي يمتلئ بها البيت حين تفارقه الحياة، ويمتلئ بها البيت حين تدخله الحياة.

قال الأستاذ محزوناً مشفقاً، وكم قضى المسكين من وقت على هذه الحال؟ قال التلميذ يوماً كاملاً نصفه في ذلك البيت الذي كان يخلو، ونصفه في هذا البيت الذي كان يعمر. ولقد فهمت أن تحدث إليه في الانتقال من دار إلى دار، وأن اذهب معه مذهب الادباء في هذا الحديث،

فأخذت أذكر له وقوف الشعراء على الاطلال واحيائهم لما
يثير هذا الوقوف في نفوسهم من الذكرى وما يسفح على
خدودهم من العبرات ، وذهبت أروي له : قفا نبك من
ذكرى حبيب ومنزل . . وأنشده : لحولة أطلال ببرقة
تهمدي . . وأتغنى له بدمنة أم أوفى . . وأروي له ما قال
ذو الرمة في ربع مية . واستطرد به إلى ما قال أبو تمام في
عمورية بعد أن دمرها المعتصم تدميرا . فلم أجد منه نشاطا
ولا انبساطا وإنما قال في صوت المحزون ولهجة المتعب
المكدود وما أنا وذاك ؟ لقد تنقلت في حياتي بين دور كثيرة
من حوش عطى ، إلى درب الجمايز ، إلى شق الثعبان ، إلى
مونبلييه ، إلى باريس ، إلى السكاكيني ، إلى الحوياتي ، إلى
هليو بوليس ، إلى الزمالك ، فأقسم ما وجدت ساعة
الانتقال لحظة من هذه اللحظات الحلوة التي يغنيها
الشعراء غناء جميلا في شعر جميل اودع فيها دارا احببتها
وبلوت فيها الحلو والمر من الوان الحياة ، واستقبل فيها دارا

لا اعرفها ولا أرف ما ستكشف لي فيها الايام عنه من
الاحداث والخطوب . إنما هو الضجيج والعجيج وازدحام
الادوات والاثاث ، وصياح العمال والحمالين وخفق
الاقدام ، وجر الاثقال ، ومجلس ضيق كهذا المجلس الذي
ترى وساعات طوال ثقال كهذه الساعات التي رأيت ، ثم
وصل لما انقطع من الحياة ، وسعى فيما أهمل من العيش ،
وانغماس في هذه الحركات العنيفة التي لا موضع فيها
للشعر ولا مكان فيها للغناء . هنالك عدلت به عن النحو
من الأدب لنوع آخر . فأخذت اتحدث إليه عن قول أبي
تمام

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى . . . ما الحب إلا للحبيب الاول
كم منزل في الأرض يألوه الفتى . . . وحينه أبدا لأول منزل .
وأخذت أسأله عن أحب منازل له إليه وأثرها عنده فلم
يحتج إلى تفكير ولا تقدير ، وإنما قال في صوت حزين
يشوبه الابتسام احب دار واثرها عندي إنما هي تلط التي
درجت فيها طفلا في قرية من قرى الريف ، وهذه الدار

التي نشأت فيها شابا في حوش عطى ، ثم هذه الدار التي أقمت فيها طالبا للعلم في شارع من شوارع الحي اللاتيني في باريس ولكن بشرط إلا أعود إلى الإقامة والحياة في وحدة منها ، هي حبيبة إلى كريمة اثيرة عندي حين اذكرها وحين ألم بها الأمامة القصيرة اليسيرة ، فأما أحب الدور إلى وآثرها عندي الآن فهي هذه التي تراها مضطربة مختاطة مملوءة بالضجيج والعجيج والصياح من كل نوع ، وتراني فيها اسير سجيا بين هذه الادوات المختلطة المكدسة حولي لا أستطيع حركة ولا انتقالا لأنها ستستقيم لي بعد أيام ، وستحمل الي فيها ساعات الحياة من الوان العيش ما لم اذق بعد . ويكفي أن اذكر تلك الدور كلها وكيف انتقلت من احداها إلى تلك التي تليها حتى انتهيت إلى هذه الدار لتعلم اني كغيري من الناس خليق إلا امنح تلك الدور من نفسي إلا هذه الدار الذي يقترن بالذكرى ، مومن يدري لعلي أن انتقل من هذه الدار التي تراها إلى دار اخرى

أوثرها عليها واختصها بالتفضيل ، إنما نترك في كل دار نسكنها قطعة من قلوبنا ، ولكنك تعلم أن قلوبنا لا تنقص بما نفرق من أجزائها بين الدور ، وإنما تكمل وتستكثر من الثروة بهذه الذكريات التي نحملها معنا إلى أن يأتي هذا اليوم الذي ننتقل فيه إلى منزل آخر لا نؤثره ولا يؤثرنا ، لا نحبه ولا يحبنا ، لا نسعى إليه ولا يسعى إلينا ، وإنما نكره عليها كراها ، ويكره هو علينا كراها . . .

هنالك أحسست مرارة الحديث فهممت أن اتحول بصاحبي إلى حديث آخر ، ولكن أمور الدار وترتيبها كفتني مؤونة هذا . الانتقال ، فقد اقبل المقبلون يرفعون هذا وذاك ، يتصايحون ويتبادلون بينهم الامر والنهي . قال الأستاذ لا بأس بهذا الموضوع ولكن على أن تعالجه علاجاً آخر وتعرضه عرضاً فنيا يثير الضحك ويثير الرثاء وإنما يأتي ذلك حين تقصد إليه قصد صاحب الفن وتبث فيه جزءا من اجزاء نفسك يمنحه شيئاً من الحياة .

من أحاديث العيد...

ابتسم الصبح فابتسمت معه الثغور ، وأرقت الشمس
فأشرقت معها الوجوه وغنت الطير فتغنت معها النفوس
بالآمال والأمانى وبالأهواء والميول وتغنت معها نفوس
أخرى بالأحزان اللاذعة ، والآلام الممرضة ، والعواطف
التي تفسر القلوب وتسفح الدموع . وأندفع قوم إلى
السرور العريض ، وأندفع قوم آخرون إلى الحزن العميق ،
وتردد قوم بين هذا وذاك يأخذون من كليهما بحظ معتدل ،
ويؤلفون لأنفسهم منهما مزاجاً لا هو بالمشرق المبتهج ولا
هو بالمظلم القاتم ، وإنما هو شئ بين ذاك ، فيه مكان للذة
والأمل ، وفيه مكان للألم والذكرى . وأضطرب الناس
أيام العيد بين دور الأحياء ودور الموتى ، يتحدثون إلى
أولئك ويفكرون في هؤلاء .

وكثير من حديث الناس الأحياء ، وكثير من حديثهم عن الموتى ، خليق أن يسجل ويتخذ موضوعاً لألوان مختلفة من الأدب والفن . ولكن هذه الأحاديث تقبل مع أيام العيد ، وتذهب معها كأنها لم تكن . تترك آثارها في نفوس الناس ولكنها لا تترك آثارها فيما ينشئون ويكتبون . لأنهم لا ينشئون ولا يكتبون ، ولأنهم إن أنشأوا أو كتبوا فقلما يقفون عندما يشعرون أو يجدون ، إنما يلتمسون موضوعاتهم في السماء حيناً ، وفي السحاب حيناً ، وبعيداً عن حياتهم إثماً . فإن مسوا حياتهم فهم لا يمسون إلا ظاهراً منها ، وهم يمسونه في رفق أقرب إلى الجذب المؤسس منه إلى الخصب الذي يحيي النفوس ويغدو القلوب .

أما أنا فقد كنت أتحدث إلى نفسي وإلى أصدقائي في أيام العيد أحاديث مختلفة ، منها الباسم ومنها العابس ، فيها الجد وفيها الهزل . ولكني كنت أحتفظ لنفسي بأشد هذه

الأحاديث مرارة ولذعاً. لأنني أعلم إن الناس يكرهون في أيام العيد وفي غير أيام العيد مرارة الحزن ولذع الألم. وأشهد لقد استقبلت يوم العيد بحزن عميق لأنني استعرضت صوراً تعودت أن أستعرضها كلما أقبلت الأعياد، وفكرت فيمن أزوره ويزرني، وفيمن أسعى إليه ويسعى إلي، فإذا كثير من هذه الصور قد محي من صفحة الحياة ولم يبق له إلا رسم في صفحة القلب، قوي عند قوم، ضعيف عند قوم آخرين. محيت هذه الصور من صفحة الحياة فلن أسعى إلى أصحابها، ولن يسعى أصحابها إلي، إما لأن أصحابها قد نقلوا من هذه الدار التي نضطرب فيها بالألم والأمل إلى دار أخرى، لا تعرف الحركة ولا الاضطراب، وإما لأن أصحابها ما يزالون يضطربون معنا في هذه الدار، ولكن ظروف الحياة وأسباب العيش قد نقلت أهواءهم عنا إلى قوم آخرين ليسوا منا ولسنا منهم الآن في شيء، لقد كنت أبدا زيارات

العيد بهؤلاء النفر من الأصدقاء الأعزاء أكون معهم ليلة العيد، فإذا تنفس الصبح فكرت فيهم، وإذا ارتفع الضحى سعت إليهم، فلقيتهم وكأننا لم نلتق منذ دهر طويل، وقضيت معهم ساعة قصيرة ضيقة لم أفرغ لهم فيها، ولم يفرغوا إلى كثرة المقبلين والمنصرفين، ولكنها على ذلك ساعة عريضة خصبة لكثرة ما فيها من هذا الود الذي ينتقل إلى قلبك مريحاً عذباً لا لشيء إلا لأن اليد صافحت اليد ولن التحية الهادئة البريئة من التكلف قد مست الإذن فملأت النفس حياة وغبطة وسروراً. فإذا قضيت مع هؤلاء الأصدقاء هذه اللحظة القصيرة الخصبة خرجت من عندهم وقد ادخرت من الغبطة والسعادة ما يعينني على احتمال أثقال العيد فذهبت إلى دار عدلي ثم دار ثروت ثم إلى دار فلان وفلان. وقد أخذت الأيام تتخطف هؤلاء الناس واحداً واحداً حتى لقد زرت هؤلاء الأصدقاء فقضيت معهم ما قضيت من الوقت، ثم

خرجت فإذا أنا أنصرف إلى كوكب الشرق لا إلى دار عدلي ولا إلى دار ثروت ولا إلى دار فلان وفلان من أولئك الذين كنت احب أن أسعى إليهم واغتبط حين يسعون إلي أو حين يرسلون إلي تحياتهم مع البريد وكنت لا أكاد أتهياً للخروج يوم العيد حتى ينبئني المنبئون بأن فلاناً وفلاناً وفلاناً من الأصدقاء قد أقبلوا وهم ينتظرون ، منهم من يريد أن يبدأ العيد بلقائي لأن لقائي كان أحب شيء إليه يوم العيد ، ومنهم من يريد أن يصحبني في زيارات العيد لأنه يجد في هذه الصحبة لذة ويسراً فأما الآن فأني أنبأ بأن قوماً آخرين قد أقبلوا وبأنهم ينتظرون ، أما أولئك الذين كانوا يقبلون وينتظرون قد أنقطع إقبالهم وانقطع انتظارهم إلى حين ، لأنهم يخشون الأحداث ويخافون الظروف ويشفقون من الجواسيس ويربأون بأنفسهم من غضب السلطان . هم أحياء ولكن ظروف الحياة قد قطعت ما بينهم وبينني من الأسباب ، كما إن ظروف الموت قد قطعت ما بين الموتى

وبيني من الأسباب . ولم تكن أيام العيد تنقضي حتى أزور داراً من الدور في ناحية من نواحي القاهرة فألقى فيها ابتسام الزهرة النضرة ، والشباب الغض ، والحياة التي تبسم للحياة . وقد انقضت أيام هذا العيد فلم أزر هذه الدار لأنها محزونة لا تحتفل بالعيد ، ولأن زهرتها النضرة قد اجتثت منها اجتثاثاً ، وانتزعت منها انتزاعاً ، وحملتها الريح إلى حيث لا ينظر الزهر ولا تبسم الحياة للحياة . لم أزر هذه الدار ولم أنعم بتلك الابتسامة ولم أسمع ذلك الحديث ولكن الله يشهد إنني قضيت أيام العيد كلها ، ويظهر إنني سأقضي أياماً طويلة أخرى وأن صوتاً من الأصوات سيتدرد في نفسي جافاً خشناً متعثراً مؤسماً كما تتردد النعمة من الأنعام في القطعة الطويلة من الموسيقى ، وتسألني عن هذا الصوت الذي تردد في نفسي منذ أشهر وسيتدرد فيها أشهراً وأشهراً وأعواماً ، فهو صوت ذلك النعش حين خرج الحاملون به من الصلاة في مسجد من

مساجد القاهرة وهم يعالجون إثباته على سيارة من سيارات الموتى وهو يأبى عليهم بعض الإثم يطيعهم ويستسلم لهم ، وإذا خفقة جافة كأقفال الباب ، وإذا النعش قد استقر ، وإذا أزيز ضئيل نحيل يرتفع في الميدان ثم يتسع ويضخم ، وإذا السيارة تنطلق كأنها السهم إلى ذلك المكان الذي لا يعود منه من استقر فيه . وإذا نحن نتبعها كاسفين ونعود كاسفين ، وإذا الحياة تتصل بنا وتضطرب خطوبها حولنا ، وتصرفنا عن أنفسنا وعن الناس ، ولكن ذلك الصوت الجاف الخشن المتعثر يعود إلي من حين إلي حين فيذكرني بذلك اليوم الثقيل الذي شيعت فيه فقيدين عزيزين في اقل من ساعتين .

بهذا وأمثاله كنت أتحدث إلى نفسي أيام العيد ، فإذا سألتني عما كنت أتحدث فيه إلى الناس وعما كان الناس يتحدثون فيه إلى حين كنا نلتقي ، فيا للبؤس ! ويا للفقر ويا للشقاء ! ويا لجذب الحياة وإفلاس الاحياء ، كنا نتحدث

عن الأزمة المالية ، وكنا نتحدث عن السياسة ، وكنا نتحدث عن غدو المندوب السامي مع الطير يوم العيد وما يحيط بغدوه ذلك من أسرار وأخبار ومن تأويل وتعليل .
ثم كنا نتحدث عن بعض هذه الأشياء الممتازة التي ظفرت بأحاديث الناس وشغل الصحف وعناية رجال الأمن : كنا نتحدث عن ذلك الخاتم الذي اضطرب له رجال الأمن وعطلت له دار من دور التجارة ، واتصل حوله تحقيق طويل ودقيق ولم تبح صحيفة مصرية عربية أو غير عربية لنفسها أن تعرض عنه أو تطوى أخباره عن قرائها ، ثم أصبح الناس يوم العيد فإذا الصحف تنبئهم بأن سيدة التقطته أمام مدرسة من المدارس فظنت جواهره من الزجاج ولم تعلم انه حجر نفيس ، وان مدينة القاهرة مضطربة له اشد الاضطراب ، وان قيمته تربي على ألف من الجنيهات . وكنا نتحدث عن هذا الدبوس الذي افتقدته صاحبه فلم تجده فارتاعت لفقده وهم أصحابها أن يقولوا

قصة كقصة الخاتم ، ولكن شابا لم يلبث إن التقطه فردّه إلى صاحبه ، فلم يضطرب رجال الأمن ولم يحتج رجال التحقيق إلى النشاط ، ولم تزد الصحف على أن روت الخبر رواية يسيرة قصيرة في مكان غير ظاهر ولا ممتاز . وكنا نقارن بين قصة الخاتم وقصة الدبوس وبين حظ الخاتم وحظ الدبوس . وكنت أقول لأصدقائي وهم يتسمون ويضحكون وفلسفون : على رسلكم أيها السادة ، فلو قد سألتهم ذلك الخاتم أو ذلك الدبوس عما يعرفان من التاريخ ، ولو قد أراد الخاتم وأراد الدبوس أن يقص عليكم بعض ما يعرفان لما ابتسمتم ولا ضحكتم ولا أغرقتهم في الفلسفة هذا الإغراق . فليست قيمة الخاتم والدبوس في هذه الجنيّات التي تربي على الألف أو تبلغ المئات فحسب ، ولكن قيمتها فيما يحملان من ذكرى وما يصوران من حياة ، وفي هذه الصلة التي تصل بينهما وبين القلوب والنفوس . قال صديق ماكر : فحدثنا إذا عن

خاتمك الذي فقدته ، فقد يظهر انك فقدت خاتماً أيضاً وان أمره قد ارتفع إلى رجال الشرطة ثم هبط إلى الصحف ثم ذاع بين الناس . قلت وإنك لتتحدث عن هذا الخاتم هازلاً كأنما تغض من أمره وتزدريه ، فهل تعلم إنني حزنت عليه حزناً شديداً! وهل تعلم أنه ليس أقل خطراً ولعله أعظم خطر عندي من ذلك الخاتم وهذا الدبوس؟ وهل تعلم أنه يمتاز من ذلك الخاتم وهذا الدبوس بأن له الحياة المصرية العامة آثاراً باقية ، به أصبح قوم دكاترة . وبه أدرك قوم آخرون إجازة اليسانس ، وبه صرف كثير من أمور الدولة ، وقضى في مصالح كثير من الأستاذة والطلاب أعواماً ، فحدثني أين يقع من هذا كله اثر ذلك الخاتم وهذا الدبوس في حياة المصريين؟ ومع ذلك فلم تبلغ قيمته ألفاً ولا مائة ، ولا عشرة من الجنيهات ، استغفر الله ، بل لم تبلغ قيمته عشرة من القرش ، وإنما كانت قيمته قرش ونصف قرش ليس غير ، اتخذته حين كانت الأشياء

رخيصة، في ذلك الزمن، الذي كنا نستطيع أن نبلغ فيه بالقرش كثير من المآرب والحاجات، اتخذته في باب الخلق، خارج ذات يوم من دار الكتب، وكنت في الرابعة والعشرين من العمر، وكنت أريد أن أسافر إلى أوروبا، واطهر لي هذا السفر إني شخص من الأشخاص، يجب أن اذكر مولدي، واعرف سني، واقدر ما آتي من الاعمال، في ذلك الوقت بحثت عن شهادة الميلاد وكانت ضائعة، فعرفت سني وكنت أجهلها، وفي ذلك الوقت قيل لي من أتى عملاً أو قال قولاً وجب عليه أن يمضيه، فاتخذت هذا الخاتم، صنعه لي رجل كان يصنع الخواتم قريباً من المحافظة، ثم عبر معي البحر، وصحبني في فرنسا طالباً، وصحبني في الجامعة أستاذاً، عمل معي في أعمال الدولة، وأمضى معي عن أمور الدولة، وكان صديقاً أميناً، لست أدري، كيف قبلت فراقه حيناً، وأتمنت عليه صاحبي، حتى أقبل ذات يوم ينبئني أنه افتقده فلم يجده، هنالك

ضقت به وضقت بالناس ، وضقت بالحياة كلها وقتا غير قصير ، ثم زعم لي زاعم إن الأمر يجب أن يرفع إلى الشرطة فرفع اليها ، وهبط إلى الصحف ، ولكن الشرطة تلقت أمره باسمه ، لكن الصحف نشرت أمره مداعبة ، ولكن الأصدقاء تحدثوا عنه حين ، أفرأيت إن قيم الأشياء ، تختلف لا باختلاف آثارها ، ومكاناتها ولكن باختلاف أصحابها ، فلو كنت رئيس الوزراء ، لما ابتسم الشرطي ، ولما داعبت الصحف لأنني فقدت خاتما ، ولكنني لست رئيس الوزراء فيبسم الشرطي ، ولا يأتي حركة وتداعب الصحف ، وتمزح أنت ويمزح هؤلاء بهذا وامثاله ، كنا نتحدث أيام العيد .

ربع مية...

يا دار مية بالعلياء فالسند . . . أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً لا أسائلاً . . . عيت جواباً وما بالربع من أحد
ولم يكن ربع مية بالعلياء فالسند، وإنما كان في صحن
الأزهر، وعند القبلتين القديمة والجديدة، حيث كانت
الحركة المتصلة في الليل والنهار، وحيث كان ذلك الدوي
الغريب الذي لم يكن ينقطع إلا في أوقات الصلاة العامة.
والذي كثيراً ما فكرت فيه وسألت نفسي عن هذه الأجزاء
التي لا تحصى، والذرات التي لا تعد، والتي كانت تؤلف
جوهره وتكون مزاجه، وتجعل منه وحدة لا يظهر فيها
الاختلاف، ولا يحس فيها التباين، فإذا حللتها رأيت
اختلافاً لا حد له، وتبايناً ليس له آخر: رأيت أصوات قوم
يتحدثون في متاع الدنيا ولهوها، وأصوات قوم آخرين
يتحدثون في جد الحياة وآلامها، وقوماً يذكرون الله،
وقوماً يدرسون العلم، وقوماً يتلون القرآن، وقوماً يقرأون

ما يخطر لهم وما لا يخطر لك على بال ، وقوماً يخوضون
فيما تظن وما لا تظن من فنون الحديث ، ومن هذه
الأصوات كلها ينعقد صوت واحد قوي ضخم عميق
عنيف متحد يملأ فضاء الأزهر منذ تدخله إلى حين تخرج
منه ، ويملاً فضاء الأزهر من أي باب ولجته ، إلى أي باب
تجاوزته ، ويملاً فضاء الأزهر في جميع أرجائه وأنحاءه على
كثرة ما فيها من الانحناء والالتواء والانعطاف .

نعم في هذا الربع الذي لم يكن يخلو في نهار ولا في
ليل ، ولم يكن يهدأ في شتاء ولا في صيف ، ولم يكن
يشعر بالحاجة إلى الحياة لأنه كان حياة كله . وكان حياة
كأشد ما تكون الحياة قوة وحركة وإنتاجا . في هذا الربيع
وقفت كما وقف النابغة في ربع مية ، ولكنني لم أقف أصيلاً
وإنما وقفت بعد صلاة العتمة ففهمت هذا النحو من شعر
القدماء ، أو قل أحسست هذا النحو من شعر القدماء ،

فما أكثر ما نفهم الشعر القديم والحديث دون أن نحسه كما يحسه قائلوه . ودون أن نتأثر به كما يتأثر به الشعراء .

وكان الأزهر كربع مية ، خلا بعد عمران ، وسكن بعد حركة ، وأعيا عن جواب السؤال حين وجه إليه السؤال ، وكان الأزهر كربع مية قد طال عليه الأمد وبعد به العهد . طال عليه الأمد أكثر مما طال على ربع مية فما أضن أن ذلك الأمد الذي ذكره النابغة والذي طال على ربع مية كان طويلا مسرفا في الطول يكاد يبلغ ألف سنة كهذا الأمد الذي أذكره حين أتحدث عن الأزهر والذي ذكرته حين تحدثت إلى الأزهر منذ أسبوعين . وكان الأمد بين الأزهر وبينني قد طال . فما أذكر أنني دخلته منذ بضع عشرة سنة ، وما أذكر أنني طوفت فيه منذ أكثر من عشرين عاما ، ولكنني حملت في نفسي دائما للأزهر صورة حية قوية شديدة الحركة عظيمة النشاط رائعة الدوي عسيرة التحليل) وكنت أسعى إلى الأزهر منذ أسبوعين وإن قلبي

ليخفق سعادة واغتراباً وحنينا إلى هذه الصورة التي
صحبتني ربع قرن وطوفت معي في أقطار الأرض
واستقبلت معي الوان الخطوب لم تضعف ولم تفر ولم
تتضاءل . والتي كنت أسعى بها إلى أصلها الأصيل في
صحن الأزهر وعند القبلتين لتستمد قوة إلى قوتها وحياة
إلى حياتها ، فلما بلغت الربع - وليتني لم أبلغه - نظرت
فإذا الصورة أقوى من الأصل ، وإذا الأزهر الذي أحمله في
قلبي أشد حركة وأعظم نشاطا وأقوى حياة من الأزهر
القائم هناك في حي القاهرة .

قال أصحابي وكلهم مثلي أبناء الأزهر الذين بعد
عهدهم به وطال فراقهم له : وما يمنعنا أن نختم رمضان
بزيارة قصيرة للأزهر نحبي بها العهد القديم ونذكر بها أيام
الشباب . قلت وأنا في ذلك لراغب ، وأنا إلى ذلك
لمشوق . ومضينا إلى الأزهر ونحن نقدر أن سنجد فيه تلك
الصورة التي الفناها ، وأن سنسمع فيه ذلك الدوي الذي

عرفناه، وأن سنختلط به اختلاطاً، ونمتزج به امتزاجاً، ونقف فيه كما كنا نفعل أيام الشباب وقفات فيها الجد الخصب، وفيها هزل يشوبه الحب والعطف. نتنقل بين هذه الحلقات المنبثة في أرجائه نسمع لهذا الشيخ وهو يقرأ الحديث أو التفسير أو يقص قصص الوعاظ فيعجبنا صوته وإلقاؤه وفهمه وإفهامه فنعجب به ونبسم له. ونتجاوزه إلى ذلك الشيخ فيضحكنا صوته أو القاؤه أو لازمة من لوازمه أو بعض ما يدفع إليه من الخطأ في الفهم أو السخف في الإفهام فننصرف عنه ضاحكين متفكهين، حتى إذا قضينا من هذا كله إربا خرجنا وقد ذكرنا أنفسنا وسعدنا بلقاء تلك الأيام العذاب.

كنا نقدر هذا كله فلما دخلنا الأزهر لم نرى إلا وحشة ولم نحس إلا صمتاً، لم نعرف شيئاً ولا أحداً، ولم يعرفنا شيء ولا أحد. وإنما كنا أشبه شيء بالأشباح أو الأطياف تمضي في مكان خال موحش لا حياة فيه ولا عمران،

وأشهد لقد لقينا خدم الأزهر باسمين لنا محتفين بنا،
يسعون بين أيدينا ومن حولنا، كأننا نحن جماعة من
السائحين الذين لا علم لهم بالأزهر ولا معرفة لهم
بخفائيه، فهم يهدوننا ويدلوننا ويرفقون بنا في الحديث.
ويحكم! فأنا أعلم منكم بالأزهر وأعرف بمعامله، وإننا لم
نأت لنلقى منكم هذا الرفق، وإننا لنفضل أن تلقونا بما كان
يلقانا به أسلافكم من ذلك العنف الذي كانت تحبه نفوسنا
وان أظهرنا منه النفور. أين الجبلاوي وأعوان الجبلاوي؟
أين تلك العصي التي كانوا يهزونها فتسمع لها أصوات
خفيفة ولكنها مخيفة؟ أين الغراب وأيام الغراب؛ وأين
رضوان وجنود رضوان؟ أين الجندي وأعوان الجندي؟ أين
هؤلاء جميعا وما كان يحيط بهؤلاء جميعا من جلال كنا
نزدريه وكنا نضيق به، وها نحن أولاء نذكره الآن فتذهب
نفوسنا في أثره حسرات. ولست أدري من هذا الذي عرفنا
فأسرع بأسمائنا إلى رجل كريم من أصحاب الفضيلة

المفتشين . وإني لأطوف مع صاحبي في الأزهر يتحدث إلي وأتحدث إليه بهذا الصوت الهادئ الخافت الذي نصطنعه إذا خلا أحدنا إلى صاحبه . كأنما نحن في دار من الدور أو في بيعة من البيع التي يحسن فيها الهمس لا في الأزهر الذي لم يكن يجب ألا الجهر ورفع الصوت ، وما راعنا إلا صاحب الفضيلة وقد أقبل علينا طلق الوجه باسم الثغر مبسوط الأسارير يحينا تحية الرجل الكريم ، ويدعونا إلى ضيافته ويلح علينا في أن نصعد معه إلى حيث يتلى القرآن ويشرب الشاي . .

وكنا نود لو استطعنا أن نخلو إلى هذه العمدة القائمة لنجدد عهدنا بها ، ولننبثها ذكرى تلك الايام ، ولنسألها عما ألم بها من الحوادث وأختلف عليها من الخطوب منذ فارقتها ، ونظفر منها بهذا الصمت الذي هو أفصح من الكلام وأبلغ منه أثراً في النفوس ، ولكن الشيخ دعى فلم يكن بد من أن نستجيب ، فمضينا مع الشيخ إلى حيث

أراد، وصعدنا معه إلى غرفة من تلك الغرفات التي كنا نذكرها أيام الصبا فتمتلئ قلوبنا لذكرها مهابة وإجلالا ورهبة وإكبارا. في تلك الغرف كان يستقر شيخ الأزهر ومفتي الديار. وفي تلك الغرف كانت تدبر أمور الأزهر وتصرف شؤون العلماء والطلاب، وحول تلك الغرف كانت تتطاير طائفة من الأحاديث والأساطير عن حياة الشيوخ وأقوالهم وأعمالهم. وكانت هذه الأحاديث تصل إلينا فنعجب بها ونبسم لها ونلتمس فيها العبرة والعظة والفكاهة. وكنا نتنقل بهذه الأحاديث إلى بلادنا في الريف فنقصها على آبائنا وإخواننا فيعجبون بها ويكبرون أصحابها ويتخذونها ذخراً لما يعقدون من مجالسهم إذا أشرق الصبح أو أقبل المساء.

صعدنا مع الشيخ إلى تلك الغرفات ونحن نسأله عن الأزهر ما خطبه، وعن هذا الصمت ما مصدره. والشيخ صامت كالأزهر لا يستطيع رجع الجواب. ثم انتهينا مع

الشيخ إلى طائفة من أصحابه كرام مثله لقونا لقاء حسنا ،
وحيونا تحية حسنة ، كما لقينا الشيخ وكما حيانا ،
ونسألهم عن الأزهر ما خطبه؟ وعن هذا الصمت ما
مصدره فإذا هم صامتون كالأزهر ، وإذا هم صامتون
كالشيخ ، وإذا هم لا يستطيعون رجوع الجواب .
ثم تدور علينا أكواب الشاي ، ثم تتلى علينا آيات الله
في صوت عذب ولهجة حلوة وقراءة صحيحة مستقيمة
نقية تصل إلى أعماق القلوب . ولكن من القارئ؟ من أين
جاء؟ ما شكله؟ وما زيه؟ أنه رجل مطربش قد اتخذ زيا
غير زي الأزهر ، لأنه ليس من أهل الأزهر وإنما هو من
عمال العنابر . تبارك الله ! رجل من غير الأزهرين يتلو
القرآن بين الأزهرين ! هذا خير ، هذا خير كثير ولكنه
غريب لم نكن نقدر أن نلقاه في أيامنا تلك . وكنا نحب أن
نلقاه الآن والأزهر معمور يموج بالناس وترتفع فيه
أصوات الشيوخ بقراءة القرآن . ولكن الأزهر ساكن

صامت ، وهذه الطائفة الكريمة من العلماء الواعظين قد استمعوا وأنصتوا لتلاوة القرآن الكريم تخرج من رأس عليه طربوش . هذا خير ما في ذلك شك . ولكن هذه الصورة ما زالت غريبة في أنفسنا ، وما زال موقعها من قلوبنا شاذاً قلقاً ، ومع ذلك فقد يقال إن الشيوخ محافظون ، وإننا نحن من أصحاب التجديد . ثم انصرفنا محزونين مستيئسين ، جئنا نزور الأزهر فلم نر الأزهر ، وإنما رأينا أطلاله ولم نستطع أن نطيل عندها الوقوف . قلت لأصحابي : ولكن ما هذا الصمت وكيف انتهى الأزهر إليه ؟ وأيكم كان يظن أن ذلك الصوت العظيم يقضى عليه في يوم من الأيام أو في ليلة من الليالي بهذا الخفوت المنكر المخيف . قال أصحابي فانك تنسى أن الأزهر قد كان جامعاً فأصبح جامعة . وإنك تنسى أن الجامعة إن استيقظت في النهار فهي تنام في الليل ، وأنك تنسى ان للجامعة نظام يحد حظه من الحركة وحظها من

النشاط . فأذكر هذا كله وأذكر أنك تخطئ أشد الخطأ إن ظننت أن التجديد مقصور على الجامعة وأصحاب الجامعة ، فالتجديد أقوى وأنشط وأوسع سلطاناً مما تظن . أنظر إليه كيف وصل إلى الأزهر فعلمه كيف يكون الكلام في النهار والصمت في الليل . وقد كان الأزهر متصل الكلام في الليل والنهار . قلت لأصحابي يا بؤسي للتجديد إذا انتهى بالأزهر إلى هذه الحال ! كم كنت أؤثر أن يظل الأزهر جامعاً وإلا يمسح جامعة .

لحظات

أتعرف هذه اللحظات القصار المفاجئة التي تعرض لك من حيث لم تكن تقدر ان تلقاها كأنما كانت تكمن في بعض أنحاء الزمن ، حتى إذا قربت من مكمنها خرجت عليك بما يملؤها من قوة وحدة ، وبما تستطيع ان تثير نفسك من حزن عريض عميق أو أمل واسع مبتسم . فوقفك في طريقك الزمني واضطرتك بعد وقفة قصيرة إلى أن ترجع إلى الماضي البعيد والقريب تستحضر ما كان فيه من أحداث وتحس ما ترك في نفسك من ذكرى ، أو تضطرك إلى أن تثب وثبة بعيدة إلى مستقبل الأيام ، فإذا أنت تشيد القصور وتتخذ من الخيال أحلاما حلوة تحب إليك الحياة وتملأ قبلك بالصفح عما جنت عليك من السيئات . ؟

أتعرف هذه اللحظات القصار المفاجئة الخصبه التي لم تكن تقدر في وقت من الأوقات أنها ستعرض لك أو أنك

ستعثر بها ، ولكنك خرجت ذات يوم من دارك تسعى فيما يسعى الناس فيه من جدة الحياة وهزلها ، وتبلو ما يبلو الناس في سعيهم من حلو الحياة ومرها ، فإذا لحظة من هذه اللحظات قد سقطت عليك كما يسقط الجدار على الغريب الذي مر به مصادفة وهو يميل إلى السقوط . أو عنت لك ثم مثلت أمامك كما يعن الشيء النفيس لبعض المارة ثم يمثل بين أيديهم حين يصلون إليه ، وإذا هم وقوف أمامه قد أخذتهم الحيرة ثم غمرهم السرور؟ أتعرف هذه اللحظات القصار المفاجئة التي يضمورها لك الغيب ويخفي عليك بوادرها وطوالعها ثم يفجأك بها على غير انتظار ، كما يلقاك الرجل تعرفه أو لا تعرفه فيلقي إليك نبأ من الأنباء لا يرى له خطراً ولكنك لا تكاد تسمع له حتى يحدث في نفسك أعماق الآثار وأقواها ، وأبلغها وادعاها إلى الحزن والابتئاس أو إلى الفرح والابتهاج؟

إنك تحسب هذه اللحظات حين تلقاها أو حين تلقاك
قصاراً لأنك تحصيها بالدقائق والثواني ، وما هي بالقصار
لأنها تحمل في وعائها الضيق الضئيل من العواطف
والأهواء ، ومن الأمل والذكرى ، ومن اللذة والألم ، ما
يضيق به كثير من الساعات بل كثير من الأيام . إنك
تحسب هذه اللحظات مفاجئة لأنها عرضت لك أو لأنك
عرضت لها على غير انتظار ولا تهيوؤها ولا منك وما
هي بالمفاجئة . فان قوى أخرى غير قوتك وغير قوتها قد
عملت منذ أزمان بعيدة في تهيتك لها وتهيتها لك ، وفي
دفعك إليها ودفعها اليك ، حتى التقيتما عن مفاجأة في
ظاهر الأمر ، وعن قضاء مدبر وقدر مقدر في حقيقة
الأمر . وإذا كلاكما قد صنع لصاحبه وقدر له تقديراً .

هذه اللحظات القصار الطوال المفاجئة المدبرة لا تسنح
للناس جميعاً ، ولا تسنح للناس في كل وقت ، ولو عرفت
وسيلة إلى أن تتبين كيف تسنح للناس ومتى تسنح لهم ،

ولأيهم تسنح لكنت من أكبر المستكشفين والمخترعين .
وكيف برجل يفضح سر القدر ويهتك أستار الغيب؟!
ولكنت بعد ذلك محسناً إلى كثير من الناس لأنني أعلمهم
كيف يتقون كثيراً من الشر ، وكثيراً من الألم اللاذع
والحزن المضني للنفوس والقلوب . ومسيئاً إلى كثير من
الناس لأنني أعلمهم كيف يفقدون لذات قلما يظفر الناس
بمثليها ، وكيف يصددهم العلم عن ضروب من السعادة لا
ينعم بها إلا الجاهلاء ، ولحرصت أشد الحرص على أن
أجهل هذا العلم وأغلق نفسي من جميع أنحائها دون هذه
القوانين ، لأنني لا أعدل بهذه اللحظات القصار الطوال
المفاجئة المدبرة كثيراً من أجزاء الزمن مهما تطل ، ومهما
تقصر ، ومهما تمتلئ ومهما تفرغ ، وأي حزن ممض مرمض
يشبه في اللذة المحرقة اللاذعة ، وفي السعادة المظلمة القائمة
هذا الحزن الذي حملته لحظة من هذه اللحظات في ليلة من
الليالي فوضعت في قلبي ثقبلاً خشناً شاقاً ، ولكنه على

ذلك كله حلو ، ولكنني على ذلك أحبته وكلفت به .
ولكنني على ذلك حمدت هذه اللحظة القصيرة المفاجئة التي
حملته حتى إذا بلغت قرارة نفسي وضعته فيها هادئة مطمئة
إلى من أقصى الزمن ، وأقبلت به متباطئة متثاقلة كما
توضع الصخرة الثقيلة في مكان من الأمكنة في غير عنف
ولا سأم ولا كلال .

كنت مع جماعة من الأصدقاء نشهد التمثيل ونسمع
الموسيقى والغناء في الأوبرا . قد فرغنا لما نشهد وما نسمع ،
وتركنا أعباء الحياة وأثقالها جميعاً في تلك العربة التي كانت
تنتظرنا بالباب ، وقد حفظت لكل واحد منا ما ائتمنها عليه
من الودائع لترده إلينا متى عدنا إليها ، ولم تكن ودائعنا
تلك التي ائتمنا عليها العربة وتخففنا منها قبل أن ندخل
الأوبرا إلا حياتنا اليومية وما فيها من مشقة ولين ، ومن
مودة وبغض ، ومن يأس وأمل ، ومن ألم ولذة ، ومن
نشاط وخمود . تخففنا من هذا كله وسللنا نفوسنا منه إلى

حين كما تسل السيوف من أغمادها ، وخلصنا بقلوبنا
ونفوسنا نقية صافية مصقولة كأنها المرآة نعرضها للممثلين
لينعكس فيها ما يبدعون من مظاهر الجمال الفني في
التمثيل والغناء . وكنا لا نحس الا ما نشهد ونسمع ، ولا
نفكر الا فيما نشهد ونسمع فإذا وقف التمثيل وتفرقنا في
أبهاء الدار أو لبثنا في أماكننا لم نتحدث إلا بما شهدنا
وسمعنا نصفه ونستمع به ، وإلا بما سنشهد ونسمع ،
نتوقعه ونتنبأ بما سيحمل إلينا من اللذة والمتاع . وهل ينبغي
أن يدخل الناس دور الفن إلا على هذا النحو ، قد خلصوا
للفن من كل شيء ومن ذكرى كل شيء ، وفرغوا للفن لا
يشركون معه في نفوسهم شيئاً ، وإني لجالس في ناحية من
نواحي الدار مع أصدقائي نتحدث بما كان في الملعب
ونتوقع ما سيكون ، وإذا صوت يخرج أصدقائي ويخرجني
مما كنا فيه . . صوت لم أسمعه منذ أعوام وقد كنت
أسمعه كل يوم ، صوت قد بعدت آماد الزمان والمكان بينه

وبين سمعي حتى تقطعت بينه وبينني الأسباب ، وحتى
كدت أنسى نبراته ، وكنت أفكر فيه تفكيراً بعيداً نائياً حين
كان يحدثني عنه المتحدثون . ثم دنا هذا الصوت ودنا ، ثم
امتدت يد فامتدت إليها يدي . ثم كانت مصافحة ثم
كانت تحية . ثم كان استئذان في الجلوس ، وأذن به ، ثم
كان وجوم من صاحب الصوت ، ووجوم ممن كان يبلغه
الصوت لم يطل ، ولم يكن من السير أن يلحظ ، ولكنه
مع ذلك كان طويلاً ثقیلاً . ثم كان حديث قصير في أشياء
لا تغني ولا تفيد ولا تدل على شيء ، ثم شرب القهوة
واحرق السيجارة ، ثم تحية الوداع ، ثم الافتراق .

لست أدري أذاق أصدقائي لذة التمثيل بعد ذلك أم
شغلوا عنه؟ أما أنا فأعلم أنني لم أذق للتمثيل بقية الليلة
طعماً ، إنما كانت الأصوات تبلغ أذني ثم لا تصل إلى
نفسي وإنما تقف من دونها وقوفاً لأنني كنت أفكر في غير
التمثيل ، ولأنني صرفت عن الغناء والفن صرفاً ، لم دنا

إليّ هذا الصوت ، وكان قد بعد وأمعن في البعد؟ لم مد إليّ هذه اليد وكانت قد قبضت عني قبضاً؟ لم اتصل الحديث بين صاحب الصوت واليد وبينني كانت قد انقطعت بينه وبينني الاحاديث ، بل كانت قد انقطعت بينه وبينني الصلات إلا أن نضطر إليها اضطراراً حين تجمعنا المجامع ، أو نلتقي على غير موعد ولا انتظار . ثم لا نستطيع أن يهدي بعضنا إلى بعض ما ينبغي من الإعراض في مثل ما نحن عليه من الجفاء . لم دنالي هذا الصوت؟ ولم امتدت الي هذه اليد؟ ولم اتصل بيننا هذا الحديث؟ لقد كان الحياء يترقق في هذا الصوت الذي كان يدنو الي مأخوذاً حزيناً ولقد كان الحياء يضطرب في هذه اليد التي كانت تصافحني مترددة مرتعشة بعض الشيء . ولقد كان الحياء يملأ هذا الحديث فيضطره إلى الفراغ مما يعني أو يفيد . ومع ذلك فشهد الله ما شككت في أن هذا الصوت

قد دنا الي صادقاً ، وفي أن هذه اليد قد امتدت الي صادقة
وفي أن هذا الحديث قد اتصل بيننا خالصاً من كل رياء .

وا رحمته للناس ! إن الضعف الإنساني ليحمل نفوسهم
آلاماً ثقالاً . وا رحمته للناس ! إنما في الحياة من إعراض
زائلة ترغبهم في الخير العاجل ، وتخوفهم من الشر
العاجل ، لتحمل نفوسهم آلاماً ثقالاً . وا رحمته للناس !
ان أجسامهم لتطغى على نفوسهم وان أهواءهم لتطغى
على عقولهم ، وان منافعهم لتنسيهم حقوق الصداقة
والصديق ، وا رحمته للناس ! ان رهبة السلطان والرغبة في
جاهه والحرص على قرب المكان منه لتفسد عليهم من
لذات الحياة الخالصة الصافية ما لا ينبغي أن يفسد ، وا
رحمته للناس ان لهم على هذا كله لنفوساً لم تطبع على
الشر ، ولم يحل بينها وبين الخير ، وان هذه النفوس التي
تضعف حتى تتورط فيما لا ينبغي لها ، لتختلس الفرص
إلى القوة والخير اختلاساً ، وتختطفها اختطافاً ، وتنعم منها

بالبسير الضئيل في اللحظة القصيرة المفاجئة ، لم تكن تنتظر ولم يكن يدبر السعي لها تدبيراً ، وإنما سنحت فاقتنصت كما يسنح الصيد وتمكن منه الفرصة فيقتنص . و ارحمته للناس ! لو علموا أن منافع الحياة وأعراضها وأغراضها وما فيها من رغبة ورهبة ، ومن مكانة وجاه لا تزن كلها لحظة قصيرة مفاجئة يصفو فيها الود ، ويخلص فيها النصح ، ويفرغ فيها الصديق للصديق ، لغيروا من حياتهم ومن سيرتهم الشيء الكثير .

عرضت لي هذه اللحظة القصيرة المفاجئة في ليلة من ليالي الأوبرا ، وما أكثر ما تعرض هذه اللحظات القصار المفاجئة لكثير من الناس في هذه الأيام السود ، فاللهم ، ارفع عن الناس مقتك وغضبك واللهم هيئ للناس حياة لا يخاف الصديق فيها لقاء الصديق ، ولا يختلس الصديق فيها لقاء الصديق ، ولا يقطع الصديق فيها أسباب الود

والحب ، لا لشيء الا لأنه يخاف بأس السلطان أو يرجو
رضى السلطان .

في الجو...

أما في العصور القديمة حين كان الإنسان رشيدا حذرا يطلق خياله إلى أبعد مدى ممكن ، لأن إطلاق الخيال لا يضر ولا يخيف ولا يرسل عقله وجسمه إلا في أناة وبمقدار ، لأن إرسال العقل والجسم بغير حساب قد يؤدي إلى ما لا يحب ، أما في تلك العصور فقد كان الناس يطIRON في الخيال . يطIRON مجازا لا حقيقة ، وقد تتحدث أساطيرهم بأن منهم من حاول أن يطير حقا ، فلما ارتفع في الجو دنا من الشمس فذابت أجنحته التي اتخذها من الشمع ولم يلبث هو أن هوى إلى الأرض فاندق عنقه ، ولقي من الموت جزاء على هذه الجراءة التي سمت به إلى أرقى ما يجب أن يسمو إليه الناس . فقد خلق الناس ليمشوا على الأرض لا ليطيروا في الجو ، فمن عدا منهم طوره أو تجاوز حده لقي هذا الجزاء الذي لقيه طائر

الأساطير اليونانية حين أذابت أجنحته الشمس ، أو ما لقيه طائر الأخبار العربية حين كان جسمه اثقل من خياله فلم يكد يسلم نفسه إلى الهواء حتى خانه الهواء وأسلمه إلى أمه الأرض فدقت عنقه أولاً . ثم حنت عليه بعد ذلك كما تحنو الأم الرؤوم على ابنها العزيز .

كان ذلك في العصر القديم حين كان خيال الإنسان اكبر من عقله . وأشد من اجترأ على الطبيعة وما يلبث فيها من المصاعب والعقاب وكان أسلافنا من أدباء العرب وشعرائهم محيين للأناة ، يطiron ولكن دون أن يفارقوا أماكنهم ، تطير نفوسهم وقلوبهم شوقاً إلى من يحبون ، وتطير نفوسهم وقلوبهم فرقا ممن يكرهون ، وقد تطير أجسامهم إلى ساحة الحرب وميادين القتال حين يأتيهم الصريخ ويبلغهم فزع المستغيث . ولكن أجسامهم كانت تطير دون أن تفارق أقدامهم الأرض ، كانوا يسرعون في العدو فيحسبون إنهم يطiron ، ولعل منهم من كان يطير

في الجو ، ولكن على ظهر ناقة أو جمل . فكان يباع بين قدميه وبين الأرض ، ولكنه كان يتخذ بينه وبين الأرض سببا على كل حال . ومنهم من كان يسعده الحظ وتواتيه الثروة فيطير على ظهر فرس أو جواد ، ويحسب مع ذلك أنه يطير حقاً ، وربما عبث به الوهم ولعب به الخيال فظن حيناً أنه يطير ، وظن حيناً آخر أنه يسبح في الماء ، أما الآن فلست أدري أضعف الخيال أم لم يضعف ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو ان العقل والجسم أخذا يسابقان الخيال فيسبقاه في كثير من الأحيان ، فلم يبق الطيران في الجو حلماً ولا وهماً ولا نبأ من أنباء الأساطير ، وإنما أصبح أداة يسيرة من أدوات الانتقال . وكان منذ أعوام أداة مقصورة على أصحاب الجرأة من الفنانين ، ثم تجاوزهم إلى أصحاب الجرأة والسعة من المترفين وفارغي البال ، ثم تجاوزهم إلى أصحاب الثروة الذين يحبون السرعة ويستطيعون الانفاق ، ثم أخذ منذ حين ينزل ويتدلى دون

أن يفارق الجو ، ولكنه ينزل ويتدلى على كل حال حتى بلغ أمثالك وأمثالي من أهل الطبقات الهينة اليسيرة المتواضعة التي يسمونها الطبقات الديمقراطية . وأصبح الطيران في هذه الأيام أداة من أدوات الانتقال قد يعجز العمال عن استخدامها ، ولكن أهل الطبقات الوسطى لا يعجزون عن ذلك ولا يترددون فيه ، والغريب انه بعد أن تقدم أو تأخر في أوروبا وأمريكا إلى هذا الحد وصل إلى مصر واستقر فيها ، ان صح إن الطيران يستطيع أن يستقر . وصل إلى مصر وأصبح أداة للانتقال يستخدمها المصريون الذين عرفهم الزمان ببغض السرعة وحب الأناة والحرص على الثبات والاستقرار . أليس آباؤهم قد بنوا الأهرام . ومع ذلك فقد أخذ المصريون يطرون ، ولم يقتصر الطيران على الرجال في مصر ، بل تجاوزهم إلى النساء فهن يطرن أيضا وهن يسابقن في الطيران ، وهن يسبقن الطائرين ، وقد كان مكتوبا عليهن أن يلزمن الدور ويعكفن من وراء الخدور .

ولكن ماذا نصنع وقد ارتقى العقل حتى سابق الخيال ،
وارتقى الجسم حتى استطاع أن يطير ويبلغ آماداً وبيئات لم
يكن يبلغها من قبل إلا الخيال والوهم . وأغرب من هذا
وذاك إن الطيران قد هان ولان وسهل أمره وابتذلت قيمته
حتى أصبح مباحاً لقوم ما كان ينبغي أن يباح لهم لولا أن
الفساد قد دب إلى كل شيء وتسلط على كل شيء وأصبح
الناس ينظرون فلا يعرفون أين يعيشون ، ولا كيف
يعيشون .

وهؤلاء القوم الذين سخر لهم الطيران في آخر الزمان
هم الأدباء . والأدباء المصريون ، أرأيت إلى أديب عربي
يطير؟ أين نحن من أيام طرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ،
وزهير ، وغيرهم من الشعراء الذين كانوا إذا حز بهم الأمر
وألح عليهم الهم وعث بهم شيطان الشعر يعمدون إلى
نوقهم فيركبونها ثم يخرجون بها في الصحراء ليسلوا عن
أنفسهم همها ، وليلتقوا عن شياطينهم ما يريدون أن

يوحوا إليهم من جد الكلام وهزله . ثم يعودون وقد فتنوا
بهذه النوق وقالوا في وصفها ما لا نزال نتكلف في فهمه
وتفسيره ضروب المشقة وألوان العناء .

كذلك كان يفعل أسلافنا من شعراء الجاهلية
والاسلام، أما الآن فصديقنا الأستاذ عبد العزيز البشري
يطير لا بالخيال ولا بالعقل ولا على جناح الفلسفة، وإنما
يطير حقاً، يطير من هليوبوليس إلى الإسكندرية، ثم
يتحدث عن طيارته كما كان يتحدث طرفة عن ناقته، أو
كان يتحدث صاحب العرداة عن عرادته، أو كما يتحدث
أبو نواس عن ناقته في تلك الأبيات التي يحسن الأستاذ عبد
العزيز البشري خاصة إنشادها وتوقيعها، يتحدث عن هذه
الطيارة حديثاً أي حديث، حديثاً ساحراً حقاً، باهراً
حقاً، نشرته الأهرام في الصيف فأعجبت به حتى لم أنسه
إلى الآن على كثرة ما قرأت منذ الصيف، حديثاً لا تكاد
تمضي فيه حتى تحس كأن الأستاذ يعرف طيارته كما كان

طرفة يعرف ناقته ، ومع ذلك فما أظن أن للأستاذ علما مفصلا بهذه الشياطين التي تطير بالناس في الجو منذ طغى العلم الحديث . ولكن للبيان سحراً ينطق صاحبه بالأعاجيب ، وما دام الأدباء وقد أخذوا يطيطرون ، وما دام الطيران قد أصبح أداة ، من أدوات الانتقال فلا بد من أن تتغير لغة الناس بعض الشيء ، ولا بد من أن يلتمس المبالغون لأنفسهم ألفاظاً أخرى يعبرون بها عن السرعة حين يريدون أن يصفوا السرعة ، فقد كانوا يطيطرون شوقاً حين كان الطيران أمراً مستحيلاً ، أما الآن فيجب أن يجدوا للشوق أداة ينتقل بها غير الطيارة ، وبيئة ينتقل فيها غير الجو .

وقد أخذ الأدباء الأوروبيون يسلكون الطريق الطبيعية إلى هذه الغاية ، وأول ما كان ينبغي أن يفعلوه من ذلك إنما هو تسخير الطيارة للأدب بعد أن سخرت للعقل والجسم ، ولعقول الأدباء وأجسامهم بنوع خاص ، أخذوا يفهمونها

ثم يصفونها ويعبرون عنها تعبيراً أدبياً بعد أن كان وصفها والتعبير عنها مقصورين على العلماء الذين يخترعون ، والعمال الذين ينفذون ، والصناع الذين يعالجون أجزاء الطائرة في كل ساعة من ساعات النهار . ثم لم يكتف الأدباء بالفهم والوصف والتصوير فيما يكتبون من المقالات ، وما ينظمون من القصائد وما يذيعون من الأحاديث ، ولكنهم تجاوزوا ذلك فاستغلوا الطائرة في فنون الأدب كلها . فما الذي يمنع أن تكون الطائرة موضوعاً يلهم أصحاب القصص ، ويلهم أصحاب التمثيل ، وإذا كان من الحق أن الناس يأتلفون ويختلفون وتثور بينهم عواطف الحب والبغض فتؤثر في حياتهم أبلغ الأثر وأعماقه ، وتلهم القصاص أن يصوروا من ذلك ما يريدون ، فإذا بعضهم يصور من ذلك ما يقع في قطار ، وبعضهم يصور من ذلك ما يقع في سيارة ، وبعضهم يصور من ذلك ما يقع في عربة تجرها الخيل ، أقول إذا كان

من الحق أن كرسي البريد وعربة الخيل والسيارة والقطار والزورق والسفينة الشراعية والسفينة البخارية، كل ذلك قد ألهم الأدباء في الشعر والنثر والقصص والتمثيل، فما الذي يمنع الطيارة أن تلهم الأدباء في هذه الفنون جميعاً، ومن الذي يستطيع أن يزعم أن الطيارة أقل قدرة على الإلهام، وأقل حظاً من الفصاحة وسحر البيان من هذه الأدوات التي ذكرناها آنفاً. ومن الذي يستطيع أن يزعم أن الأدباء الذين سخرُوا للأدب كل هذه الأدوات يعجزون عن أن يسخرُوا للأدب هذه الأداة الجديدة التي تطير بأجسام الناس بعد أن طارت صورتها بما كان لهم من عقل أو خيال.

الطيارة قادرة على الإلهام، والأدباء قادرون على أن ينطقوها رغم أنفها سواء أكان لها أنف أم لم يكن. وتستطيع أن تنظر في الآداب الأوربية الحديثة فسترى أن الأدباء قد أغنوا فنون الأدب وأضافوا إلى ثروته الضخمة

ثروة أخرى قيمة حين اتخذوا الطائرة أداة من أدوات القصص . وأنا زعيم بأنك بدأت القصة التي أنشأها الكاتب الفرنسي كيسل منذ أعوام وسماها اكيلاج فلن نستطيع أن تدعها حتى تتمها ، ولن تتردد في أن تعترف بأنها من خير ما انتج القصص الحديث . وليس لهذه القصة موضوع إلا اختصام جنديين من جنود الطيران في الجيش الفرنسي أثناء الحرب حول امرأة كانت زوج أحدهما فاحبها الآخر وهو لا يعرف زوجها . ثم جمع الطيران بين الزوجين فاحب كل منهما صاحبه حبا عميقا ، ثم ظهر لهما أنهما يجبان امرأة واحدة . وصور أنت لنفسك كيف تنتهي القصة ، ولكن يجب أن تعلم أن الطائرة هي الأداة التي بها تنتهي القصة والتي عليها تقوم القصة .

وإذا استطاعت الطائرة أن تدخل فن القصص ، فما الذي يمنعها أن تدخل في فن التمثيل وأن تلهم الممثلين أو

كتاب التمثيل آيات بينات وقد فعلت . وقد بلغت من الإجادة في ذلك أمداً بعيداً حقاً ، تستطيع أن تقرأ إن لم تستطيع أن تشهد هذه القصة التمثيلية الممتعة التي وضعها الكاتب الفرنسي المعروف فرنسيس دي كروا وسماها أو طيران العرس ، فسترى اتقاناً في الأداء ، واتقاناً في العرض ، واتقاناً في تصوير الصراع بين هذه العواطف الجديدة التي استحدثها الطيران في نفوس الناس لا عهد للأدب بمثله من قبل ، وسترى من هذه القصة التمثيلية ومن تلك القصة الأخرى أن الطيران لم يكد يوجد لنفسه بيئة خاصة من الذين يحبونه ويتخذونه صناعة أو لهوا حتى أوجد لهذه البيئة أخلاقها الخاصة وعواطفها الخاصة ولغتها وأساليبها في الحسّن والشعور ومذاهبها في التعبير والتصوير .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه إلى شيء عظيم الخطر حقاً ، لست أدري أنافع هو أم ضار ، ولكن

من الذي يستطيع أن يقيد العقل والخيال بما ينفع أو بما يضر . وإذا كان الرقي العلمي قد انتهى بالناس إلى حيث يتنافسون الآن في اختراع أدوات الموت والتدمير وما يمحو الحضارة محو ويرد الإنسان إلى شر ما عرف من أطوار الوحشية ، فما الذي يمنع الرقي العلمي من أن يدفع بالطيران إلى ما يفسد العلم إفسادا ويجعله أداة من أدوات الشعوذة والتضليل ؟

لست ادري أعرفت إن كاتباً فرنسيا شابا هو الأديب ملرو قد مر بمصر منذ أسابيع ، فقد طار هذا الشاب من مصر إلى غرض لم يرد أن يعينه ، ولأمر لم يرد أن يدل عليه ، ثم أصبحنا اليوم وإذا الصحف تنشر رسائل برقية تنبئ بأن هذا الكاتب الشاب قد طار إلى بلاد العرب وتغلغل في أحشائها ، ولكن من فوق ، لأن أحشاء البلاد العربية خطرة تهضم الذين يقتحمونها هضمًا . قالت الرسائل البرقية إن هذا الكاتب الشاب قد استكشف شيئاً

عجيباً وطار فوق أخطار جسام ، استكشف مدينة سبأ التي
تحدثت عنها التوراة وتحدث عنها القرآن وامتلأت بأنبائها
كتب التاريخ والأساطير ، وليس من شك في أننا سنقرأ
تفصيلاً واسعاً لهذا الاستكشاف ، ولكن الشيء الذي لا
اشك فيه هو أننا سنقرأ كتاباً لهذا الأديب الشاب عن مدينة
سبأ هذه . وسيكون هذا الكتاب من أقوم الكتب الأدبية ،
وسيكون على كل حال من أروجها أكثرها انتشاراً ، ولن
يكون حظه من الرواج والانتشار أقل من حظ القصة التي
وضعها الكاتب الفرنسي بيربونا وسماها الأطلنطيد والتي
فتحت لصاحبها أبواباً ثلاثة : باب الثروة وباب الشهرة
وباب المجمع اللغوي . سمع بيربونا بأحاديث القارة
الموهومة اتلنتيس وسمع باستكشافات الجغرافيين
للصحراء الكبرى ، فزعم ان صاحبه قد ذهب يستكشف
فانتهى إلى بقية من هذه القارة ، ولقي هناك الملكة انتنيا من
سلالة نبتون إله البحر . ثم وصف شخصها وقصرها

وبيئتها وصفا رائعا عجيبا ، وسمع الكاتب الشاب ملرو
أحاديث سبأ وقصة بلقيس ، وسمع أحاديث المستكشفين
الذين يتجشمون الأهوال لاستكشاف البلاد العربية .
ووجد الطيارة فطار مستكشفاً ، والله يعلم هل عبر البحر
إلى بلاد العرب ، وهل وصل إلى طرف من أطراف الربع
الخالي حقا . ولكن مما لا شك فيه أنه وجد مدينة سبأ ،
ومن يدري لعله رأى ملكتها ، وتحدث إليها ولو بالإشارة
من طيارته ، ولعل الملكة أن تكون قد شغفت به ، ولعله
هو أن يكون قد فتن بما رأى من حسنها البارع . ولعله قد
انصرف عنها بعد أن ألقى إليها بقلبه من أعلى الجو ، فهو
مضطر إلى أن يعود إليها ليلتمس قلبه هناك حيث ألقاه في
ذلك القصر الممرد من قوارير ، والذي يقوم في تلك المدينة
العظيمة التي ترتفع أسوارها الشاهقة في طرف من أطراف
الربع الخالي . وسيكون حظ هذه القصة المنتظرة كحظ

تلك القصة التي فرضت بييربنوا على الأدب الفرنسي
فرضا .

رأيت أن بييربنوا قد استغل الاستكشاف العلمي
للصحراء فدل الناس على بقية القارة المفقودة ، وأن ملرو
قد استغل الاستكشاف الجغرافي والطيارة ، وسيدل الناس
على ما بقى من ملك السبئين .

أما بعد فإننا نبحت منذ قرون عن مدينة ضائعة في
الصحراء يقال أنها تنتقل من مكان إلى مكان يحسبها
بعضهم من الذهب والفضة ، ويحسبها بعضهم من
النحاس والحديد . وهي إرم ذات العماد . ويقول بعضهم
أنها ليست إلا هرما من هذه الأهرام التي تقوم في الجيزة ،
والتي تستكشف من حولها المقابر والتماثيل والأدوات
المختلفة . ولدينا طيارون ، ولدينا طيارات . فهل نستطيع
أن نتظر من أديب من أدبائنا وليكن صديقنا عبد العزيز
البشري أن يطير مع بعض شبابنا البارعين في هذا الفن لعله

أن يعثر - إن أمكن أن يعثر الناس في الجو - بهذه المدينة
القديمة العظيمة إرم ذات العماد؟ وليس عليه بأس إن لم
يجدها أن يخترعها اختراعا وأن يزعم لنا انه وجدها كما
فعل بيربنوا وكما سيفعل ملرو. وليس ينبغي أن نخاف
من صديقنا عوض وأصحابه الجغرافيين فان الكاتبين
الفرنسيين لم يحفلا بأعلام الجغرافيا في السوربون.

النقد والطربوش وزجاج النافذة

وتستطيع أن تضيف إلى هذه العنوانات عنوانات أخرى ، فهناك أزقة ضيقة شديدة الضيق ، ملتوية شديدة الالتواء ، قد كثر على أرضها الوحل ، حتى أن الذي يمشي فيها لينزلق ، أو يمشي مشية مسلم بن الوليد في بيته المشهور :

إذا ما علت منا ذؤابة شارب . . . تمشت به مشى المقيد في الوحل
وقد أمطرت سماؤها أو نوافذ ما يقوم فيها من الدور
ألوانا من المطر ، منها السائل ومنها اليابس ، نستغفر الله ،
بل قد صبت سماؤها أو نوافذ ما يقوم فيها من الدور ألوانا
من البلاء ، منها مرق الفول النابت ، وماء المخلل ، وفيها
أشياء أخرى جامدة كانت تهوى على الرؤوس ، وربما
مست العيون ، وربما دخلت الأفواه ووصلت إلى الحلق
فانعصرت فيها انعصاراً ، وأذكت فيها لهيباً وناراً ، وقد
كان في هذه الأزقة مارد من مرده الجن أو مرده الإنس ، له

صدر عريض قد انتفش فيه شعر الطويل حاد كأنه الأسنة ،
يصطدم به الرجل القصير فإذا هذا الشعر الطويل الحاد
يداعبه ويلاعبه ، فيبعث بوجهه ، ويدخل في أنفه وفي فمه
وفي عينيه . وقد كان في هذه الأزقة غلام شرير ، لسانه
عذب ، ويده مرة ، وقد كان في هذه الأزقة شاب ظهر
الغباوة والبله ، خفي المكر والغدر ، شديد البأس
والبطش ، يخيف من ليس من شأنه أن يخاف ، ويضطر
اثبت الناس قلوباً وأشدّهم استهزاء بالحياة إلى أن يعدو عدو
الشنفري وتأبط شراً وابن براق ، حتى يدفع إلى دار من
الدور ، ثم إلى بيت من بيوت هذه الدار ، فلا يدخل هذا
البيت من بابه كما أمر الله أن تؤتى البيوت ، وإنما يدخله
من إحدى نوافذه . وفي هذه الأزقة شيخ وقور ، ظاهره
يخيف ، وباطنه فيه الرحمة واللين ، وفيه الرفق والدعة ،
وفيه الأدب وحسن الذوق .

كل هذه الأشياء، وكل هؤلاء الأشخاص، يمكن أن تضاف ويمكن أن يضافوا إلى هذه العنوانات التي قدمتها بين يدي هذا الكلام، ولكنني لم أضفها تخرجاً من الإطالة وإشفاقاً من الإطناب، وإيثارا للإيجاز البليغ.

وأنا أستطيع بعد أن وضعت هذا العنوان وأتبعته بهذا الكلام، أن أتحول بك إلى ما شئت أنت أو ما شئت أنا من الموضوعات فأحدث إليك فيه حديثاً طويلاً أو قصيراً، وأعرض عليك فيه صوراً جميلة أو دميمة، وأثير في نفسك به عواطف هادئة أو جامحة، وأرسم على وجهك به ابتساماً وضحكاً، أو عبوساً وتقطيباً، حتى إذا بلغت من هذا كله ما تريد أنت، أو ما أريد أنا، أو ما نريد جميعاً، ذكرت النقد والطربوش وزجاج النافذة. واعتقدت أنا أو خيلت إليك إنني أعتقد، واعتقدت أنت أو خيلت إلى انك اعتقدت، واعتقد صديقي الأستاذ المازني، أو خيل إلى نفسه والينا أنه يعتقد، أنني قد أمتعت الرسالة وقراء

الرسالة بفصل قيم أو غير قيم ، قوامه الحديث عن النقد والطربوش وزجاج النافذة! .

وتسألني ما بال الأستاذ المازني يقحم هنا إقحاما ، وما خطبه مع النقد او الطربوش وزجاج النافذة ومرق الفول النبات ، وماء المخلل ، وما يتبع هذا كله من الأشياء والأحياء؟ فأجيبك بأن هذا السؤال لا ينبغي أن يساق إليّ ، وإنما ينبغي أن يساق إلى الأستاذ المازني ، فهو الذي تحدث عن هذا كله ، وهو الذي أثارني إلى أن أتحدث عن هذا كله ، وليس من شك في أن الأستاذ المازني سيقول في دعابته الحلوة الطريفة ، وما أنت وجر الشكل ، وما لك تدخل بيني وبين النقد والطربوش وزجاج النافذة ، وما يتصل بها من الملحقات؟ . ولكن الأستاذ يوافقني أو لا يوافقني - فهذا سواء - على أنه صاحب فن ، وعلى أن أصحاب الفن إن كتبوا لأنفسهم فهم ينشرون للناس ، وعلى ان صاحب الفن لا يملك أثره الفني بعد أن يلقيه إلى

الناس . وعلى أن من حق الناس إذا ألقى إليهم شيء أن يتناوله كما يحبون ، يعجبون به أو يسخطون عليه ، يرغبون فيه أو ينصرفون عنه ، يحمدونه أو يسلطون عليه اللوم .

وإذن فقد ألقى إلينا الأستاذ المازني فصله الممتع البديع الذي أثارني إلى أن أتحدث إليك عن النقد والطربوش وزجاج النافذة ، أو إلى أن أتحدث إليك عن الأستاذ المازني نفسه من وراء هذه الأشياء التي لا تحصى ، والتي لا أكره تكرارها ، وما أظنك تكره تكرارها ، وهي النقد والطربوش وزجاج النافذة والأزقة وما يتراكم على أرضها من الوحل ، وما تصبه سماؤها من السائل والجامد ، ومن يمشي بين ذلك من الأشرار والأخيار .

وللأستاذ المازني مع هذه الأشياء كلها ، ومع هؤلاء الناس كلهم ، ومعك أنت ، ومعى أنا ، قصة طريفة ظريفة ، خليقة أن تقص ، وخليقة أن تثير الإعجاب . فهل تدري ماذا دفع الأستاذ المازني إلى أن يتحدث عن هذه

الأشياء، وعن هؤلاء الأشخاص، فيشيرني إلى أن أتحدث عنه، وعنهما، وعنهم؟ هو شيء يسير، يسير جداً، هو أنه أديب يقرأ في الكتب، ويكتب في الصحف، وينقد الكتاب والمؤلفين. وقد تتغير الأزمنة وتتبدل ظروف الحياة وترقى الأجيال بعد انحطاط، ولكن هناك شيئاً لا يتغير ولا يتبدل في حقيقة الأمر، وهو أن الأدب محنة يمتحن بها الأدباء، ونقمة يصيب الله بها هؤلاء الذين يمنحهم شيئاً من حسن الذوق والقدرة على فهم الأدب وتقريبه إلى الناس. وقد امتحن الله صديقنا المازني ووفر له من نقمة الأدب وبلائه حظاً عظيماً، فجعله شاعراً مجيداً وكاتباً بارعاً، وناقداً مسموع الكلمة، مهيب الجانب، مقدور الرأي، لا يصدر كتاب إلا أراد الناس أن يعرفوا رأيه فيه وحكمه عليه. وكان صاحب الكتاب نفسه أحرص الناس على ذلك وأشدّهم طلباً له وإلحاحاً فيه. والكتب تمطر على الأستاذ المازني، ويمطر معها طلب النقد وطلب التقريظ، والنقد

والتقريظ يحتاجان إلى القراءة والدرس . وإذن فالمازني
المسكين مصروف عن نفسه وعن فنه وعن كتبه ، إلى هؤلاء
الناس الذين يكتبون ، وإلى هؤلاء الذين يقرأون . ومن هنا
ومن جهات أخرى أيضاً كان المازني شقيماً بالأدب ، وأن
كان الأدب سعيداً بالمازني ، وأي دليل على شقاء المازني
بالأدب وسعادة الأدب بالمازني ، أقوى من هذه القصة التي
أحدثك عنها الآن؟

فقد أخرج كاتب من الكتاب كتاباً من الكتب ، وأهداه
إلى الأستاذ بالطبع . وعرف الناس أن هذا الكتاب قد
أهدى إليه فأخذ الناس ينتظرون ، وأخذ صاحب الكتاب
بنوع خاص ينتظر ، فلما طال الانتظار كان الطلب ، ولما
كان الطلب ولم يجد شيئاً كان الإلحاح . واضطر المازني إلى
أن يذعن ، وأكره المازني على أن يكتب ، ولكنه كان قد
أرسل الكتاب إلى من يجلده . فلما اشتد عليه الإلحاح ذهب
في طلب الكتاب من المجلد . فدفع إلى رحلة غريبة ، وإلى

استكشاف أغرب . دفع من هذه الأحياء المتحضرة التي
تتسع فيها الشوارع ، وتجري فيها السيارات ، وتنتشر فيها
الشرطة ، والتي لا تغطي أرضها بالوحل ، ولا تمطر
سماؤها مرقا ولا مخللا ، إلى أزقة ضيقة ملتوية فاسدة
الهواء ، تعيش فيها أجيال من المردة والشياطين ، وفي هذه
الأزقة عرف المازني الخوف والفرق ، وعرف الهرب
والغلو فيه ، وعرف كيف يكون وقع الأحجار على
الأجسام ، وكيف يكون وقع الشتائم في النفوس . ثم
عرف كيف يفقد الناس طرايشهم ، وكيف ينظرون إليها
وهي تهان وتمرغ في الوحل تمرغاً ، ثم عرف كيف يدفع
الهاربون إلى اقتحام الدور والاستخفاء في البيوت وقد
غاب عنها أهلها . ثم عرف قصة الرجل الذي ذهب يطلب
كتاباً ففقد طربوشه وعاد صفر اليدين .

والغريب أن هذه الرحلة الهائلة وما امتلأت به من
الأخطار كانت كلها في القاهرة ، وفي ساعات قصيرة ،

ولست أدري فيم يحتاج الذين يحبون الأخطار إلى التماسها في الصحراء أو في الجبال أو على الذين يحبون الأخطار إلى التماسها في الصحراء أو في الجبال أو على البحر المحيط ، مادام الانتقال من حي من أحياء القاهرة إلى حي آخر ، خليقا أن يرينا من الهول والخطر مثل ما رأى صديقنا الكاتب الأديب ومن هنا نستطيع أن نفهم ضيق المازني بالأدب والأدباء ، وبالكاتب والمؤلفين وتضرعهم المتصل إلى الله أن يعفيه من هذه الصناعة التي يشقى بها ، ولكنها تسعد به وتسعد الناس أيضا . ولكن الأستاذ المازني يتساءل في شيء من الحيرة أيجب أن يقرأ ما يريد هو أم يجب أن يقرأ ما يريد الناس ؟ وإذا سمح لي بأن أجيبه فإنني أرى أنه ملزم بأن يقرأ ما يريد ، وبأن يقرأ ما يريد الناس ، مادام قد أقبل على صناعته هذه راضيا بها أو مكرها عليها ، ولكن السؤال الذي أحب أنا أن أسأله هو . هل يظن الأستاذ المازني أنه أبرأ ذمته أمام القراء وأمام المؤلف

بهذا الفصل البديع الذي كتبه منذ أيام ، فحدثنا فيه عن النقد والطربوش وزجاج النافذة ، وعما تحمل الأرض من وحل ، وما تمطر السماء من مرق؟ فان كان يظن أنه قد أَرْضَى قراءه وصاحبه بهذا الفصل فقد أصاب وأخطأ في وقت واحد: أصاب لأن الفصل بديع ، وأخطأ لأنه لا يغني من النقد شيئاً ، فلن يعفيه صاحب الكتاب من الإلحاح عليه ، ولن يدعه حتى يقول إنه قد قرأ هذا الكتاب فرضى عنه أو سخط عليه .

وسؤال آخر ، أحب ألا يغضب صديقي المازني حين أسوقه إليه . ما باله يطغى على نفسه ويسرف عليها في الطغيان ، ويصورها هذا التصوير الذي لا يلائمها بحال من الأحوال ، والذي لا نحبها لها؟ فهل من الحق أنه هباب إلى هذا الحد؟ كلا ، ولكنه يحب أن يعبث بنفسه فيسرف في العبث ، وأكبر الظن أننا ان حدثناه في ذلك ضاق بنا وضجر ، وشكا من هؤلاء الطفيليين الذين يدخلون بين

الناس وبين أنفسهم ، وقال إذا لم يكن لي الحق في أن
اعبث بنفسي فلن يكون الحق في أن يعبث بها إذن؟ أما أنا
فأجيب الأستاذ بأن هذا الحق ليس مباحاً لأحد، ولكن
الناس يستبيحونه لأنفسهم، سواء أَرْضَى الأستاذ أم لم
يرض، وأنا أتحداه، وأطلب إليه، أن يريني كيف يستطيع
أن يمنع الناس من أن يتناوله بما يحبون من ألوان النقد
والعبث لا بما يحب هو، كيف يستطيع أن يمنع الناس من
ذلك دون أن يخرج عن طور الكاتب الأديب؟ وإذن فما له
يظلم نفسه هذا الظلم، ويلح عليها بهذا العبث الذي لا
قصد فيه، أم هل ضاقت الدنيا بالأستاذ كما ضاقت
بالخطيئة ذات يوم فيما يقال فهجا نفسه، لأنه لم يجد من
يهجوه، أم هل كره الأستاذ الأخذ والرد، وضاق بالحوار
والجدال، وكره أن يذكر الناس فيغريهم بذكره، فأثر أن
يذكر نفسه هذه المسكينة التي لا تجد من يدافع عنها
ويحميها من صاحبها الطاغية. فان تكن هذه فقد أخطأ

المازني ، فهأنذا أدافع عن المازني برغم المازني . أخشى ألا يكون لشيء من هذا كله أصل ولا فرع كما يقولون ، وان يكون المازني قد أراد نفقد الكتاب الذي طلب إليه نقده ، فمضى به الخيال ومضت به الدعابة إلى هذه الأزقة الضيقة الملتوية ، يبحث فيها عن الكتاب وصاحب الكتاب ، فلم يفد إلا أن فقد طربوشه وأضاع على صاحبه الشيخ زجاج نافذته ، ولم يحن لنفسه ولا لصديقه المؤلف شيئاً . وويل للكتاب وللمؤلفين من دعابة المازني ومجونه ، وويل للكتاب والمؤلفين من الغاز المازني ورموزه ، بل ويل للمازني نفسه من طغيان خياله وجموحه ، فان في هذا الجسم النحيل الضئيل جسم هذا الرجل الهادئ الوديع ماردا كالمردة وشيطاناً لا كالشياطين .

أما بعد ، فلنذكر النقد والطربوش وزجاج النافذة ، وما يتصل بها من الأشياء والأشخاص ، لنختم المقال كما بدأناه ، وليعلم المازني أنا لم نتحدث عنه ، ولم نشر إليه ،

ولم نفكر فيه، وإنما تحدثنا عن كتاب نقد، وطربوش
فقد، وزجاج حطمه فتى من الفتيان تحطيماً.

من حديث الشهداء

لم يذكر في تلك الليلة ماضيهم الحلو، وحاضرهم المر، ويستمتعون فيها عن أوطانهم تلك النائبة التي كانوا ينعمون فيها بلذات الحياة، ويستمتعون فيها بخفض العيش، ويسIRON سيرة الأحرار لا يعرفون لأحد غير قيصر وعماله عليهم سلطاناً، وقد يعرف لهم غيرهم كثيرا من السلطان والبأس، وقد يقدم إليهم غيرهم كثيرا من آيات الطاعة والإذعان. ولم يسمروا بهذه الأحاديث التي تعودوا أن يسمروا بها إذا فرغوا من أعمالهم وانصرفوا إلى راحتهم ولقي بعضهم بعضا حين ينقضي النهار ويتقدم الليل، والتي كانوا يستعيدون بها حياتهم تلك الجميلة المشرقة، ويستحضرون بها مواطن لذاتهم ونعيمهم، هناك حيث لا يشتد القيظ حتى ينضج الجلود ويصهر الأجسام، وحيث لا تقع العين على الجبال الجرد والوهاد المقفرة،

وحيث لا تضيق الأرض بالناس ولا يضيق الناس
بالأرض، وحيث يستقبل الناس أيامهم راضين باسمين،
ويستقبلون لياليهم لاهين عابثين. كلا ولم يسمروا في تلك
الليلة بما كانوا يسمرون به من ذكر الفاتنات المفتونات
اللاتي كن يحولن حياتهم أحلاماً ويجعلن جدهم لعباً،
ويسرين عنهم كل هم، ويغرين بهم كل نعيم، يخلبنهم
بالفظ واللحظ، ويعذبنهم بالذل والتيه، ويسعدنهم
بالقرب والوصل، كلا ولم يسمروا في تلك الليلة
بأحاديث قيصر وقصره، ولا بأنباء الحاكم وحاشيته، ولا
بقصص الحرب بين الفرس والروم، وأين هم الآن من
قيصر وقسطنطينية؟ وأين هم الآن من تلك الثغور الباسمة
القوية التي كانت تبسم لأهلها كأنها الجنات، وتعبس
لأعدائها كأنها الجحيم. وأين هم الآن من الفرس والروم؟
وأين تكون مكة من ميادين الحرب بين الفرس والروم؟
كلا. ولم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحياناً

من أحاديث ساداتهم ومواليهم ، ومما كان يتصل بينهم من
التنافس والجهاد ، ومما كان يدبر بينهم من الكيد والمكر ،
ومما كان يجتمع لهم من الغنى والثراء ، ومما كان يلزم بهم
من الحوادث والخطوب كلا ، ولم يسمروا في تلك الليلة بما
كانوا يسمرون به أحياناً من أحاديث هذه القوافل التي
تفصل من مكة إلى الشام ، فتمضى معها نفوسهم تسايروها
في تلك الطرق البغيضة التي يذكرون طولها وثقلها حين
قطعوها عناة أذلاء يساقون إلى مكة عبيداً أرقاء ، والتي
كانت تعود إلى مكة قافلة من الشام تحمل من أرض قيصر
أنباء مختلطة وأحاديث مشوهة مضطربة ، ولكنهم كانوا
يتلقفونها ثم يتناولونها بالتأليف والتصنيف ، وبالتحليل
والترتيب ، حتى يكونوا منها شيئاً مستقيماً أو كالمستقيم :
ثم يتخذون منه علماً بأمور أوطانهم تلك التي لم يبق لهم
إليها سبيل .

كلا . لم يسمروا في تلك الليلة بشيء من هذا ، لأن
أحاديث مكة شغلتهم عن كل هذا ، وما لها لا تشغلهم
وصاحبهم نسطاس قد اشترك فيها وأثار كثيرا منها ، وها
هو ذا قد اتخذ مكانه بينهم كئيباً كاسف البال ، محزوناً بادي
الحزن ، قد اضطربت نفسه أشد اضطراب . وهو يتحدث
إليهم في صوت متقطع مظلم كأنما أسبغ الحزن والندم
والياس عليه ظلمة كثيفة متراكمة لا تنكشف عن شيء .
وما له لا يكتب ولا يبتس ، وماله لا يحزن ولا يندم ، وما
له لا يفزع ولا يجزع ، وقد سفكت يده المسيحية دما بريئاً
ولما ينتصف النهار : أو كان هؤلاء النفر جماعة من نصارى
الروم دفعوا إلى بعض أطراف الصحراء وعدت عليهم
بعض القوافل فاتخذتهم تجارة ، وتقلبت بهم ظروف الرق
حتى انتهوا إلى ملك جماعة من سادة قریش . وكان
نسطاس أنقاهم ضميراً . وأصفاهم قلباً ، وأعظمهم حظاً
من الدين . وكان لهذا كله أصبرهم على ما ألم به من

كرب ، وأحسنهم احتمالاً لما سلط عليه من محنة ، ورضى
بهذا النكبة التي كان ينظر إليها على أنها اختبار له ،
وابتلاء لأيمانه ، وامتحان لثقلته ، وتهيئة لنفسه لتحيا حياة
السعداء إذا انقضت إقامتها في هذا العالم الشقي البغيض .
ولكنه أظهر في تلك الليلة غير ما تعود أن يظهر لأصحابه
من الجلد والصبر ، ومن الإباء والاحتمال ، وهم يعرفونه
ويرفقون به في العزاء ، وهم يلومونه ويعنفون عليه في
اللوم ، وهم يأتون نفسه من جميع أنحائها يريدون أن
يصرفوها عن هذا الحزن العميق ، وأن يصرفوا عنها بعض
الهم الثقيل ، ولكنهم لا يبلغون منه شيئاً ولا يزيدونه إلا
إغراقاً في الحزن وغلوّاً في اليأس ، وربما بلغوا بأحاديثهم
قرارة نفسه فأثاروها ودفعوه إلى الحديث فإذا هو يتكلم
بكلام تقطعه العبرات وتبلله الدموع . وكان نسطاس ملكاً
لصفون بن أمية ، وكان قد أنفذ في ذلك اليوم أمره في أسير
من أسرى الأنصار يقال له زيد بن الدثنة دفعه إلى صفوان

وأمره أن يخرج به من الحرم ، حتى إذا بلغ به النعيم قتله ثم عاد ، ولم يكن مثل هذا العمل يجب إلى نسطاس ، ولكنه لم يكن خليقاً أن يدفعه إلى مثل هذا اليأس المهلك لولا أنه عرف من أمر أسيره وصريعه ، ومن أمر أصحابه ما عرف ، ولولا أنه رأى من أمر زيد ما رأى ، وسمع من أمر خبيب ما سمع ، وانتهت إليه أحاديث أولئك الذين أدركهم الموت قبل أن يحملهم إلى مكة ويبيعهم لقريش غدر الغادرين من هذيل . ولكنه عرف ما عرف ، ورأى ما رأى ، وسمع ما سمع . فذكر أموراً كان يقرؤها في الكتب ، وأحداثاً كان يهلع لها حين يسمع أبناءها من الوعاظ . ذكر أولئك الشهداء الذين قتلوا في المسيحية تقتيلاً ، والذين امتحنوا بما كتب الله عليهم من ضروب المحن وفنون الكيد فلم تضعف نفوسهم ولم تهن عزائمهم ولم يفرطوا في دينهم ولم يجد الشك إلى نفوسهم سبيلاً . ذكر أولئك الشهداء الذين أقاموا مجد المسيحية على

أشلائهم وغذوه بدمائهم ، وقووه بضعفهم ، وأعزوه بما احتملوا في سبيله من الذل ، وأيدوه بما لقوا في سبيله من الأذى والآلام . ذكر أولئك الشهداء الذين كان يكبرهم ويجلهم ، ويرى أنهم شفاعؤه وشفعاء أمثاله عند الله ، وأنهم قدوته الصالحة وأسوته الحسنة ومثله الأعلى ، وأنه أسعد الناس لو استطاع أن يظفر ببعض ما ظفروا به من عذاب الدنيا ونعيم الآخرة ؛ ومن ذل الدنيا وعز الآخرة ؛ ومن هذا الموت الهين السريع الذي تتبعه حياة باقية سعيدة متصلة لا حد لما فيها من نعيم .

ذكر هؤلاء الشهداء وذكر أنه لم يزد حين أطاع أمر مولاه صفوان على أن قتل واحداً منهم ، واقترب ذلك الإثم الذي اقترفه الظالمون الذين اضطهدوا الشهداء وفتنواهم ؛ ثم قدموهم قرباناً إلى آلهتهم وأوثانهم في الزمن القديم . هنالك اضطربت نفسه اضطراباً ، وزلزل قلبه زلزالا ، ورأى حياته كلها وقد استحالت إلى شر منكر ،

ورأى ما قدم من الخير وقد استحال إلى فساد، ورأى ما
احتمل من الآلام وقد أصبح هباء. وهنالك ملك الندم
عليه أمره، وملاً اليأس عليه قلبه، وعجز أصحابه عن أن
يمسوا نفسه بما كانوا يقدمون إليه من تسلية أو عزاء. على
انه لم يكن يحس في نفسه شيئاً من الموجدة على مولاه
صفوان، ولم يكن يضر شيئاً من البغض، إنما كانت
موجودته كلها وحقده كله قسمة بين نفسه وبين امرأة من
قريش، وهي سلافة بنت سعيد بن سهم زوج طلحة ابن
عبد الله بن عبد العزى. كان واجداً على نفسه أشد
الموجدة، مبغضاً لها أشد البغض لأنها أثمت بقتل هذا
الرجل الشهيد، وكان حانقاً على سلافة حاقداً عليها لأنه
هي أصل هذا الشر، ومصدر هذا الإثم، ومنشأ هذا البلاء
وكان يقول لأصحابه: لولا أن هذه المرأة الآثمة نذرت ما
نذرت، وأذاعت ما أذاعت من أهل البادية، لما دفع
صفوان إلى ما دفع إليه، ولما ظفر صفوان بما ظفر به، ولما

اشترى أسيره ، ولما أنفذت أمره فيه . قال أصحابه وما نذر سلافة وماذا أذاعت في الأعراب ؟ قال أتذكرون يوم حشدت قريش لحرب صاحبها في يثرب كيف كان أشراف مكة موتورين يأكل قبلهم الغيظ ، وتملاً أنفسهم الحفيظة ، وتضطرب أمامهم أشباح الخزي يذكرون هزيمتهم حين لقوا صاحبهم لأول مرة ففعل بهم الأفاعيل ، وترك من أشرافهم صرعى لم يثوبوا إلى أهلهم ولم يستمتعوا بتجارتهم تلك الراححة التي أنقذها أبو سفيان . ويشفقون أن يترأى لهم الموت فلا يثبتوا له ولا يقدرُوا على النظر إليه فيفروا منهزمين كما فروا من قبل . ويتركوا صرعى من أشرافهم كما تركوا مثلهم من قبل .

هنالك اجتمعوا أمرهم على أن يتقوا بالنساء ويتقوا بهن الهزيمة والعار ، فاخترُوا منهن أعلاهن قدراً وارفعهن شأنًا وأنبهن ذكراً وأقدرهن على دفع الرجال إلى غمرات الموت . وكانت سلافة بين هؤلاء النساء ، خرجت مع

زوجها وبنيتها الثلاثة ، وعادت مع المنتصرين أيما ثكلى قد
فقدت زوجها وفقدت بنيتها .

ثم سكت نسطاس كأنما يستحضر هولا يروع النفوس
ويخلع القلوب . ثم عاد إلى حديثه في صوت هادئ بعيد
فقال : إن كانت لوقعة مروعة حقاً تلك التي كانت عند
يثرب . لقد عادت قريش تتحدث بالأعاجيب ، لقد عادت
تتحدث بالإخوان يسعى بعضهم إلى بعض بالموت . لقد
عادت تتحدث بالأمهات يدفعن أبناءهن إلى أن يقتل
الرجل منهم أخاه . لقد عادت تتحدث بأم مصعب فما
كان لها أن تظهر عليه حزناً أو جزعاً لأنه كان من خصم
قريش وأصحاب محمد ، لقد عادت قريش منتصرة
تتحدث بأمر سلافة هذه وقد فقدت زوجها وتلفت ابنيها
أحدهما بعد صاحبه يبلغها وقد أصابه السهم فتضع رأسه
على حجرها وتسأله يا بني من أصابك؟ فيقول ما أدري ،
ولكن سمعت قائلاً يقول : خذها وأنا بن الأفلح . ثم

أصابني السهم ، يقول ذلك ثم يجود بنفسه بين ذراعيها .
هنالك نذرت سلافة لئن قدرت على قاتل ابنها لتشربن في
قحف رأسه الخمر ، وهنالك أذاعت في أهل البادية
وأعراب الحجاز أن من جاءها برأس ابن الأفلح هذا فله
مائة من الإبل . هذا أصل الشر وهذا مصدر البلاء .

قال قائل وأي شيء لا يفعله الأعراب في سبيل جزور
فضلاً عن عشرة من الابل ، فضلاً عن مائة من الإبل ؟ قال
نسطاس : والغدر أيسر ما يفعله الأعراب ليبلغوا أيسر من
هذا المال .

أقبل جماعة من هذيل على صاحب يشرب فزعموا له
انهم قد آمنوا به وأسلموا له ، وأن دينه قد فشا فيهم ،
وسألوه أن يرسل معهم من يفقههم في الدين ويعلمهم
شرائعه . يظهرون الإخلاص ويضمرون الغدر ، لا يتغون
إلا أن يظفروا بنفر من أهل يشرب يبيعونهم من قريش
لتصيب بهم تاراً وليصيبوا بهم مالاً . ويريد الله لأمر قضاة

أن يختار نبي يشرب ستة من أصحابه وأن يؤمر عليهم
عاصم بن ثابت بن الأفلح الذي كانت تبغيه سلافة ، وان
يرسل هؤلاء النفر من أصحابه مع أولئك الغادرين . فما
هي إلا أن يقربوا من مكة حتى يظهر الخفي ويصرح الشر
ويتبين الغدر . وإذا الذين كانوا يعلنون إيمانهم
يستصرخون فيأتيهم الصريخ من هذيل . وإذا أصحاب
محمد يرون الغدر فينحازون إلى الجبل ويعاهدتهم أعداؤهم
على ألا يقتلوهم ولا يمسوهم بأذى أن هم ألفوا بأيديهم .
فأما عاصم واثنان من أصحابه فيقسمون لا ينزلون على
عهد كافر أبداً . ويقاتلون حتى يقتلوا . وأما الآخرون
فيحبون الحياة ويلينون لها ، فيستأسرون ولا يكادون
يفعلون حتى يروا الغدر ، فيأبى أحدهم أن يتبع الغادرين
وإذا هو مقتول ، ويبقى الآخرون أسيرين يحملان إلى مكة
وبياعان فيها . فيشتري أحدهما صفوان ويأمرني به فأتم له
ما قدر له من نعيم ، ويتم لي ما قدر لي من شقاء .

ثم يجھش نسطاس بالبكاء ويغرق فيه حيناً . ثم يعود إلى حديثه في صوته ذلك الهادئ البعيد ، فيقول لقد عرفت ورأيت من أنباء هؤلاء الناس ما لم أكن أقدر أن أعرف أو أرى . ولولا أن الشقاء مقضي علي ومقدور لي ، لكان فيما عرفت قبل أن أقترف الإثم صارف لي عن اقترافه ، وماذا كنت أخاف لو عصيت صفوان ولم أسفك هذا الدم الحرام؟ وأيهما أهون عليّ؟ وأيهما كان خليفاً أن أوثره؟ الموت بيد صفوان أم الشقاء الأبدي الذي دفعت إليه؟

لقد فرحت هذيل بمقتل عاصم بن ثابت ، وقالت مائة من الإبل تدفعها إلينا القرشية حين نأتيها بهذا الرأس ، ثم أقبلوا إليه يريدون أن يحتزوا رأسه؟ ولكن ماذا سمعت وماذا تسمعون ، هذه ظلة من الدبر تقوم دونه فتحميه وتمنعهم أن يصلوا إليه ، فيقول بعضهم لبعض : دعوه حتى يأتي الليل فسنصرف عنه هذه الدبر ، وسيخلص لنا رأسه . حتى إذا كان الليل هموا أن يسعوا إليه ليحتزوا

رأسه ؛ ولكن ماذا سمعت وماذا تسمعون ؟ لم يبلغوه ولم
يمسوه ، وإنما أقبل السيل فاحتمله ، ومضى به إلى حيث لا
تبلغه يد . ولقد حدثت أن هذا الرجل كان قد نذر ألا يمس
كافراً ولا يمسّه كافر ، ولقد حدثت أنه لما امتنع على القوم
فقاتلهم وقتلوه ، رفع صوته ضارعاً إلى ربه وهو يقول :
اللهم إني قد حميت دينك أول النهار فاحم لحمي آخر
النهار . ولما بكى نسطاس عند هذا الحديث فلم يبك
وحده ، وإنما بكى معه أصحابه جميعاً بكاء طويلاً ، حتى إذا
كفكفت عبرته وهدأ عنهم البكاء مضى في صمته ، ولكنهم
ألحوا عليه أن يتم ما بدأ من الحديث ، فقال وبم تريدون أن
أتحدث إليكم ؟ لقد كنت أقرأ أخبار شهدائنا وأسمع
أحاديثهم فأرهبها وأكبرها وأخافها وأرغب فيها وأود لو
أني حييت في تلك الأيام التي كانت ترخص فيها الحياة ،
ويغلو فيها الإيمان ، وأود لو أنني كنت واحداً من هؤلاء
الناس الذين باعوا نفوسهم من الله ، فقد أتيح لي اليوم أن

أعيش في بيئة الشهداء وأن أراهم وأتحدث إليهم وأسمع منهم ، ولكني لم أبع نفسي من الله ، وإنما بعته من الشيطان ، ولم أسفك دمي في سبيل الله ، وإنما سفكت دم شهيد كريم .

ولقد سمعت أبا سفيان زعيم قريش يسأله أيما أحب إليه؟ أن يقوم محمد مقامه هذا وأن يكون هو آمنا بين اهله؟ فيجيبه والله ما أحب أن تصيب محمداً شوكة تؤذيه وأنا آمن بين أهلي ، فيقول أبو سفيان لمن حضر من أشرف قريش : ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب هؤلاء الناس صاحبهم . ثم تمتد يدي الآثمة إلى هذه الحياة الطاهرة فنطفئ سراجها ، وإلى هذا الدم الزكي فتسفكه على الأرض مخافة من غضب صفوان ، يا للهول ! لقد كنت احسب أن صفوان لم يملك إلا جسمي وإن نفسي ما زالت حرة . فقد علمت الآن إنني رقيق حقاً ، وقد علمت الآن أن سلطان السادة على الأرقاء قد يتجاوز الأجسام إلى النفوس ، وقد

علمت الآن أن الرجل الذي يرضى بالرق ولا يموت دون الحرية إنما يقتل نفسه قتلاً . لقد قتلت نفسي يوم آثرت الحياة وقبلت أن أكون سلعة في يد أولئك التجار .

قال رجل من أصحابه إن كان صريعك هذا شهيداً كريماً، وما أراه إلا كذلك، فان رفيقه الذي قتله بنو الحارث بن عامر لم يكن أقل منه كرامة، ولعل مصرعه أن يكون أشد من مصرع صاحبه ترويعاً للنفس وتمزيقاً للقلب، لم يبسطوا عليه بالشر يد مولى من مواليهم أو عبد من عبيدهم، وإنما كانوا ظمأ إلى دمه، حراساً على أن يحمداوا جذوته بأيديهم خرج به جمعهم إلى التنعيم فلما أراد قتله استأذنهم في أن يتقرب إلى ربه بالصلاة قبل أن يخطو آخر خطواته في الحياة، فأذنوا له فصلى ركعتين، ثم قال لهم لولا أنني أخاف أن تظنوا بي الجزع لزدت . ثم ينهض إليه أحدهم فيقتله ويعودون عنه وأنهم ليتحدثون من أخلاقه وخصاله بما كان خليقاً أن يصرفهم عن قتله

لولا أن قلوبهم قست فهي كالحجارة أو أشد قسوة . لقد كانوا يقولون أنهم جعلوا سجنه عند امرأة منهم ، وان هذه المرأة كانت تتحدث إليهم من أمره بالأعاجيب ، كانت تراه مغلولاً يأكل من الفاكهة والثمر ما ليس لأهل مكة عهد به في مثل هذا الوقت . لا تدري كيف سيق إليه . ولقد أنبأتهم أنه حين أظله اليوم الذي كان يراد قتله فيه طلب إليها موسى يتهياً بها للموت . فأرسلتها إليه مع طفل صغير يدرج ، ثم لم تلبث أن راعها ما فعلت ، وأن امتلأ قلبها رعباً ، وأن قالت لنفسها ما يمنع هذا الأسير أن يقتل هذا الصبي فيثأر بنفسه قبل أن يدركه الموت؟ وأقبلت عليه مسرعة فإذا هو قد اجلس الطفل على فخذه وهو يداعبه ويلاعبه ، وأكبر الظن أنه إنما كان يودع فيه طفلاً له بعيداً . فلما رأى المرأة مقبلة وقد أخذها الروع ابتسم لها ابتسامة الحزن ، ونظر إلى الطفل نظرة الحب ، وقال

للمرأة: أشفقت على هذا الصبي من الغدر ، ليس الغدر من أخلاقنا .

أفمثل هذا الرجل كان خليقاً أن تقدمه قريش فتقتله لو أن قريشاً تعرف الحق ، أو تقدر الخير ، أو ترجوا لله وقاراً ، أو تحس في قلوبها أثراً من آثار الرحمة والبر؟ قال قائل منهم ما أرى إلا أن لهؤلاء الناس من أهل يثرب شأنًا . فلو أنهم يقيمون أمرهم على شيء من باطل هذه الحياة الدنيا لما استقبلوه بهذا الحزم ، ولما احتملوا في سبيله هذا الأهوال ، ولما رخصت عليهم نفوسهم ودماؤهم وأموالهم وأهلهم إلى هذا الحد . والله أني لأسمع ما يقال وأرى ما يحدث فلا أشك في أن أهل هذه الأرض يستقبلون عصرًا كذلك العصر الذي استقبله أهل بلادنا حين انبعث فيهم رسل المسيح . هذا الأيمان الذي زين في بعض القلوب حتى زهدها في كل شيء ، وهذا اليقين الذي سيطر على بعض النفوس حتى هون عليها كل شيء ، هذه المعجزات التي

تساق إلى الناس في يسر وسذاجة وما كانوا ينتظرونها ولا يرجونها فلا تغرهم ولا تطغيهم ولا تدفعهم إلى أشر ولا بطر .

كل هذا دليل واضح على أن السماء لم تقرب من الأرض قربها في هذه الأيام ، وعلى أن أخبار السماء لم تتصل بالأرض اتصالها في هذه الأيام ، وعلى أن الله يريد بالناس شيئاً لم نكن نقدر انه كائن ولكن أو أنه قد آن . أما إني لاحق بهؤلاء الناس إن استطعت إلى ذلك سبيلاً . قال الآخرون : ما أيسر ذلك وما أعسره ! وأين لمثلنا أن يفلت من سادة قريش ، وإن من حول مكة من أهل البادية لأرصداً على من أقبل من يثرب أو قصد إليها من الأحرار فكيف بالرقيق ؟ قال نسطاس وهو ينتحب فكروا في ذلك ودبروا : وتهياؤا لذلك واستعدوا ، فأنتم أهل لهذه الكرامة إن كان الله قد قضاها لكم ؛ أما أنا فقد كتب عليّ الشقاء ، وما أرى أن بحار الأرض لو سلطت على التنعيم تستطيع

أن تغسل عن أثر هذا الدم الزكي الذي سفكته هذه اليد
الآثمة ، ثم قام عنهم يعدو مشتداً في العدو ، فلم يروا له بعد
ذلك أثراً ، ولم يسمعوا عنه بعد ذلك خبراً .

الضمير الهارب

لم يكن صاحبي ساذجا ولا غليظ القلب ظاهره كهذا الضابط الفرنسي الذي اظنك رأيتَه في دار من دور السينما، يَأتمر مع أصحابه ليغير النظام في فرنسا ويرد إلى العرش ابن نابليون. فبينما هو ذات يوم يمشي على رصيف من أرصفة باريس لقي رفيقا من رفاقه في جيش الامبراطور. وكان العهد قد بعد بينهما فوقع اللقاء من نفس الرجلين موقعا حسنا، وتحدثا عن الجيش وعن الامبراطور، وتحدثا عن امس وعن غد، ولم يكرها أن يذما يومهما ويسرفا في ذمه. ثم ذهب الصديقان إلى حيث كان الضابط يحدث صاحبه عن أصدقائهما وما يَأتمرون به، ثم مازال الحديث ينتقل بهما من موضوع إلى موضوع حتى عرف الضابط ان صديقه لم يقم على عهد الامبراطور، وإنما أثر لين الحياة فعمل في جيش الملك.

هنالك لم يستطع الضابط أن يلوم صاحبه ولا أن يعاتبه ،
ولا أن يناقشه في شيء ، ولم يزد أن أطفأ المصباح حتى لا
يرى وجه هذا الصديق الخائن وفهم الرجل عن صديقه
فأنصرف عنه خزيان أسفا .

لم يكن صاحبي ساذجا غليظ القلب طاهره كهذا
الضابط الفرنسي ، وإنما كان رجلا مترفا لا في حياته
المادية ، بل في حياته المعنوية خاصة . كان مترف العقل جداً
لا يكتفي بظواهر الأشياء ولا يقنع بحقائقها ، وإنما ينبغي
شيئاً ارقى من الظواهر واعمق من الحقائق كأنه اللب
والخلاصة لكل شيء . وهو إذا وصل إلى هذه الخلاصة
وذلك اللب ولم يقنع بهما وإنما تخير منهما انقاهما
وارقاهما وأشدهما ملائمة للعقل الممتاز ، والذوق
الرفيع ، والشعور الراقى ، والنفس الأبية العالية . وكان
صاحبي قوي الحس جداً ، ولكنه كان شديد الازدراء
للحس ، يضعه في موضعه الطبيعي فلا يكبره ولا يغلو في

العناية به ، ولا ينتظر منه إلا ما ينتظر في الأداة التي لا يراد منها إلا ان تؤدي للعمل الذي هيئت له ، فهو لا يريد من حسه إلا ان ينقل إليه صورة الحياة الخارجية ، فإذا نقلها إليه شغل بها فحقق ودقق ، ومحص وصى ، واثّر نفسه بخلاصة ما ينتهي إليه التحقيق والتدقيق والتمحيص والتصفية ، فغذى به عقله وقلبه وشعوره ؛ وفكر فيه فأطال التفكير ، واستخرج منه أقصى ما يستطيع استخراجه من اللذة والألم ، ومن العبرة والعظمة ، ومن الغبطة والحزن .

وكان صاحبي هذا بحكم هذا المزاج الخاص معقدا شديدا التعقيد متعباً لنفسه ولأصحابه وأصدقائه جميعاً ، وكان كثيراً ما يسأل نفسه عما يريد فلا يجد لهذا السؤال جواباً . وكان أصدقاؤه يسألونه عما يريد فلا يجدون لهذا السؤال جواباً . فقبلوه على علاته ، وقبلوه على ما في صحبته من مشقة وتعقيد . وكانت حياته وحياة أصحابه هينة لينة مستقيمة تمضي في طريق لا عوج فيها ولا التواء ،

كما كانت حياة الناس كلهم في بعض أوقات الأمن والدعة والهدوء ، فكان راضيا عن أصحابه ، وكان أصحابه راضين عنه . وكان ما يعرض له ولهم من مصاعب الحياة ومشكلاتها لا يزيد على أن يكشفها لهم فيحبه إليهم ، ويكشفهم له فيحبهم إليه . ولكن هدوء الحياة ودعتها واضطراب الأمن فيها واستقامة الطرق لسالكها ليست أمور محتومة مقضية للناس أو مقضية عليهم ، قد أخذوا بها عهدا على الظروف والأيام . وإنما هي أمور ممكنة تتاح حيناً وتمتنع أسحياناً ، تتاح فيسعد الناس ، وتمتنع فيشقى الناس . تتاح فيجهل بعض الناس بعضاً ، ويحب بعض الناس بعضاً ، ويطمئن الناس إلى بعض ، لأن ظروف الحياة لا تكرههم على أن يدفق بعضهم في امتحان بعض ، ويحقق بعضهم في ابتلاء بعض . ثم تمتنع فإذا الناس يتعارفون ، ولا يلبثون أن يتعارفوا حتى يتناكروا ويتدابروا . ويقوم الشك منهم مقام اليقين ، ويقوم

الحذر منهم مقام الاطمئنان ، وتقوم التفرق منهم مقام الصراحة ، ويقوم البغض منهم مقام الحب ، وإذا هم يندمون على جهلهم القديم ، وإذا هم يحزنون على اطمئنانهم لماضي ، وإذا هم يتمنون لو رد الله عليهم تلك الأيام الحلوة التي كانوا يستمتعون فيها بلذة الجهل وحلاوة الغفلة ونعيم الثقة ، واعفاهم من هذه الأيام التي يشقون فيها بألم المعرفة ومرارة الفطنة وبؤس الشك .

وكان صاحبي قد فتح لنفسه الأبواب كلها على مصاريعها كلها ليتلقى كل شيء من كل شيء ومن كل إنسان . ثم ليسعد بهذه التصفية والتنقية ، وبهذا التمهيد والتحقيق ، وبتخير الثمرات من كل ما كان يجتمع له من الجد والردى فلما نكرت الأيام لم يغلق من أبواب نفسه بابا ، وإنما نظر فإذا النفوس تغلق من دونه نفسا فنفسا ، وإذا أبوابها تغلق من دونه بابا فبابا . إذا ما كان يجتمع له من الملاحظات شيئا فشيئا ، ويندر حتى كاد لا يصبح

شيئا. وإذا ما بقي من هذه النفوس القليلة التي ثبتت للمحن، وامتنعت على الخطوب، وابت ان تلين قناتها للأحداث، قد اخذ يغشاها من حين إلى حين لون رقيق جدا من الحياء، ثم من الغلو في الحياء، ثم من الإشفاق، ثم من الإسراف في الإشفاق، ثم يتكاثف اللون ويتكاثف، وتضاف طبقات منه إلى طبقات حتى يصبح احتياطيا وحذرا، وحتى يستحيل إلى حجاب كثيف صفيق لا تنفذ من دونه نفس إلى نفس، ولا ينتهي من دونه قلب إلى قلب، ولا يتحدث من دونه ضمير إلى ضمير، وإذا صاحبي يلقي أصحابه فلا يلقي منهم إلا وجوها، ويصافح أصحابه فلا يصافح منهم إلا أيدياً، ويحدث أصحابه فلا يكون بينه وبينهم إلا حركات الألسنة في الأفواه، وخروج الألفاظ من الشفاه، وانتهاء الأصوات إلى الأذان، ثم وقوفها دون هذه الأبواب التي قد غلقت تغليقا، وهذه الأستار التي قد اسدلت اسدالا، على انه

أيضاً لم يكن أقل من أصحابه وأحبائه تغليقا لأبواب نفسه ، والقاء للحجب والأستار بينه وبينهم ، فقد آذاه ما رأى منهم كما آذاهم ما رأوا منه ، فكان هذا الحياء الذي كان منهم ، ثم اخذ هذا الحياء يتعقد في نفسه كما كان يتعقد في نفوسهم حتى أصبح إشفاقا ثم شكاً ثم احتياطاً وحذراً . ولكن حياء صاحبي لم يكن كحياء أصدقائه ، كانوا يستحون منه وكان يستحي لهم ، كانوا يشفقون منه وكان يشفق عليهم . كان يحذرون منه وكان يحذر عليهم ، ولكنه الحياء والإشفاق والحذر على كل حال . ولكنه تغليق الأبواب والقاء الأستار والحجب على كل حال . ولكنه انقطاع الأسباب وفساد الصلات على كل حال . ولكنه العزلة بين قوم لم يكونوا يستطيعون ان يعتزل بعضهم بعضاً ، والفرقة بين قوم لم يكونوا يستطيعوا ان ينعموا بالفراق ، ولكنه الرياء بين قوم لم يكونوا يحتملون الرياء ، ولكنه هذا الألم الممض الذي ينشأ عن الفراق

والناس مجتمعون ، وعن البعد والناس متقاربون ، وعن القطيعة والناس متواصلون . ولكنه العذاب الذي يجده الناس حين يتحدثون بألسنتهم لا بقلوبهم ، وحين يسمعون بأذانهم لا بنفوسهم ، وحين تتصافح أيديهم وتتبادل بين ضمائرهم ونياتهم الآماد ، إلا من ألف منهم هذه الحياة واطمأن إليها ووجد فيها مثل ما كان في تلك الحياة من اللذة والراحة والنعيم لأنه فارق أصدقاء فوجد مكانهم أصدقاء آخرين ، ونأى عن أصدقاء فاستقر في أصدقاء آخرين . هنالك نظر صاحبي إلى نفسه ، فإذا هو قد أصبح أداة من الأدوات تسعى مع النهار وتعود مع الليل ، تلقى الناس فتتحدث إليهم وتسمع منهم دون ان تعقل ما يصدر عنها أو تذوق ما يصدر إليها من حديث . أداة تذهب وتجيء تتلقى آثاراً من أدوات مثلها ، وتحدث آثاراً في أدوات مثلها ، ولكنها آثار ظاهرة آلية لا قوام لها ولا لذة فيها ولا اثر للحياة القوية العاقلة المفكرة في مظاهرها ، وإنما هي أداة

ممثلة لا اكثر ولا اقل . تعمل مع أدوات ممثلة لا اكثر ولا اقل . وكانت لصاحبي بقية من قوة في النفس ، وفضل من حياة في الضمير ، واثر من حزم في الإرادة ، وقليل من ذلك الترف العقلي الذي كان يستمتع به أيام كان الناس ناسا ، وحين كانت الحياة حياة ، فاكبر ما انتهت إليه أموره وأمور أصحابه من هذه الصفة التي يجحد فيها الرجل نفسه ولا يؤمن فيها إلا بغيره . اكبر ذلك وضاق به وازمع ان يعتزل هذه البيئة التي لا يستطيع ان يكون فيها إلا أداة مسخرة . ولكنه اعتزلها ولم يعتزلها ، قر في داره وعاش بين أهله ، لم يسع إلى أحده ولم يفكر في لقاء أحد ، وكان يظن ان هذه العزلة ستغنيه وتحميه وترد إليه نفسه بريئة من النفاق معصومة من الفساد . ولكنه لم يلبث ان استيقن انه لم يصنع شيئا . فهو يعتزل الناس ولكن الناس لا يعتزلونه ، يعرض عنهم فيقبلون عليه ، يقعد عنهم فيسعون إليه ، يكف عنهم حياءوه لهم وإشفاقه عليهم فيحملون إليه

حياءهم منه ، وإشفاقهم منه ، ويغلون في ذلك يحسبون
انهم يخدعونهم عن انفسهم ، أو يحسبون انهم يخدعون
انفسهم عن انفسهم . فلما استيأس صاحبي من نفع هذه
العزلة ، واستيقن له انه لا امل له في ان يظفر بنفسه صافية
وقلبه طاهرا ، وضميره حيا ، إلا ان ترك البيئة كلها وهاجر
من ارض إلى ارض ، وارتحل عن وطن إلى وطن ، اسر
ذلك في نفسه واطهر لنا معشر أصدقائه المخادعين له
ولأنفسنا مثل ما كان يظهر من حسن اللقاء ولطف المؤانسة
حين كنا نزوره ونجلس إليه . ثم سعت إليه ذات يوم
لأقضي معه ساعة من ساعات الفراغ ، وما اكثرت ساعات
الفراغ في حياتنا نحن المصريين فلم أجده ، وسألت أين
يمكن أن يكون فلم أدل عليه . وسألت متى يمكن أن يعود
لم أنبأ بشيء . فعدت محزوننا لا لأنني لم ألقه ، بل لأنني لم
ألق عليه ثقل ما كنت احتمل من الضجر والضيق
والفراغ ، ولأنني لم ألق في نفسه أنني أوثره بالحب ، واعتقد

أنه يؤثرني به . لأنني لم أهد إليه شيئاً من هذا الرياء الذي يهديه بعضنا إلى بعض في كل يوم ، لم اتلق منه شيئاً من هذا الرياء الذي يتلقاه بعضنا من بعض في كل يوم ، رجعت محزوناً لأن الأداة لم تؤد بعض ما كانت يجب أن تؤدي من التمثيل . وعدت إلى صاحبي التمسّه فلم أجده ، وأخذ أصحابنا يلتمسونه فلا يجدونه وكلهم شعر بمثل ما شعرت به ، وكلهم يتحدث إلى نفسه بمثل ما تحدثت به إلى نفسي من الحزن وخيبة الأمل ، وقليل منهم يتحدث إلى الناس بمثل ما اتحدث به اليك الآن ايها القارئ العزيز . ثم انقضت الاسابيع والاشهر ، وإذا انا اتلقى صباح اليوم منه هذه الاسطر التي دفعتني إلى كتابة هذه الفصل . واحسب اني لن اجيبه إلا بإرسال هذا العدد من الرسالة إليه . فقد عرفت عنوانه الآن . كتب الي يقول : كتابي إليك أيها الصديق من بلد ناء فررت إليه بنفسي وضميري من بلد تفسد فيه الضمائر والنفوس ، وأثرت أن أحيا فيه فردا مع

نفسي على ان احيا عندكم حياة الأدوات لا حياة الناس ،
ولقد كنت اظن اني فارقتم إلى غير رجعة ، ورحلت
عنكم إلى غير عودة . وسئمت حياتكم سأمًا لأحد له ،
وكرهتها كرها لا أعرف له قراراً ، وعجزت عن احتمال
أيسر ائقالها . واعترف بأنني سعدت بهذه الهجرة سعادة
خصبة حقاً ، واستكشفت فيها نفسي ، نعمت بهذا
الاستكشاف ، وانست فيها إلى ضميري ، واستمتعت بهذا
الإنس ، ولكنني لم البث في هذا البلد شهراً أو شهرين ،
حتى أحسست أن نفسي لا تكفيني ، وحتى ضقت بإطالة
النظر في المرأة ، حتى ذكرت الأصدقاء فنفرت من ذكر
الأصدقاء ، وفزعت منهم إلى الكتب حيناً ، إلى مناظر هذه
الطبيعة الرائعة حيناً آخر ، وما زلت ايها الصديق مطمئناً
إلى هذا المعقل الذي آويت إليه ، واعتصمت به ولكن
انظر ! ها أنذا اكتب اليك ، وما كتبت اليك إلا لأنني
فكرت فيك ، وما فكرت فيك إلا لأن نفسي نازعتني إلى

حديثك ، وإذن فقد أبت حياتي تلك إلا أن تتبعني في هجرتي وتقتحم علي هذا المعقل الذي لجأت إليه ، وكل ما أتمناه إلا تغلبني على نفسي ، ولا تخرجني من معقلي ، وأن تكتفي بزيارتي والإمام بي من حين إلى حين . فأكتب إلى واطل فقد يظهر أن الحياة التي ترتفع ارتفاعا خالصا عن كل ما نكره من النقائص شيء لا سبيل إليه ، وأما أنا فقد جربت الضيق بالحياة في مصر والفرار منها ، وأنا زعيم لكم أيها الأصدقاء بأن صاحبكم سيعود إليكم متى انقضى الصيف ومن يدري ، لعل الحياة أن تكون قد عادت إلى شيء من الأمن والدعة والهدوء ، فتتفتح الأبواب ، وترفع الحجب والأستار ، لا نحتاج فيما بيننا إلى اصطناع الرياء ، أو إلى اصطناع المجاملة . ثم لا يستحي بعضنا من بعض ، ولا يستحي بعضنا لبعض .

الخيال الطارق

أقبل صاحبي وجه النهار مرتاعاً حائل اللون، شاحب الوجه، حائر الطرف، طائر اللب، كأنما ألم به طائف من الجن فروعه ترويعاً، وأخرجه عن ذلك الطور الهادئ الرزين الذي كنت اعرفه منه إذا لقيته فتحدثت إليه، واستمعت لأحاديثه المطمئنة العذبة الخصبة.

أقبل مرتاعاً لا يكاد يبين إذا تحدث أو هم بالحديث، بل لا يكاد يستقر في مجلس، بل لا يكاد يمسك جسمه من رعدة كانت تلم به من حين إلى حين فتهزه هزاً عنيفاً، وتذكر بقول ذلك الشاعر القديم

وإني لتعروني لذكراك هزة . . . كما انتفض العصفور بلله القطر
وأشهد لقد أنفقت كثيراً من الجهد، واصطنعت فنوناً من الحيلة، لأرده إلى ما الفت فيه من دعة وأمن وهدوء، ولقد افتقدت في تلك الساعة بعض هؤلاء الشيوخ الذين يتلون العزائم والرقى، بعد أن أخفقت أو كدت أخفق

فيما كنت أحاول من رده إلى الوقار والصواب . ولكن ظفرت آخر الأمر بما كنت أحاول ، واستطعت أن أتحدث إلى صاحبي ، وأن أسأله عن مصدر هذا الاضطراب العنيف الذي أصابه وما عرفته عرضة لاضطراب يصيب العقل أو يصيب الجسم . قال وهو ذاهل أو كالذاهل : إثم هذا على أبي العلاء أيها الصديق ، فلولا إنني نظرت في كتاب من كتبه آخر الليل ، لأذود به هذا الأرق الذي ألح عليّ إلحاحاً لما أصابني ما ترى ، بل لما أصابني ما لم تر من تلك الأهوال التي أملت بي ، واصطلحت عليّ حتى نفرتني من داري وأزعجتني عن أهلي ، ودفعني إليك في هذه الساعة التي لم أعود أن أسعى فيها إليك . وثق باني قد خرجت من داري معتماً ألا أعود إليها ، وقد أمرت أهلي أن يلتمسوا لنا داراً أخرى ، وأزمعت الرحلة عن القاهرة أياماً ، حتى إذا تم لهم ما أريد من التحول عن هذه الدار الموبوءة ، عدت إليهم في دارنا الجديدة ، لعلني أن أجد فيها

ما أنا في حاجة إليه من الدعة وراحة البال . قلت ما أراك
إلا مريضاً تحمل مرضك على أبي العلاء وتكلفه من ذلك
ما لم يقترف ، وتكلف أهلك من آثار هذا المرض شططا .
ومع أنني لم أعرف بعد هذه الأهوال التي ألت بك
فأزعجتك عن دارك ودفعتك إلى ما تحاول من فراق
القاهرة . فلست أرى بأساً بهذا الرحيل فقد طال مقامك في
مدينتنا ، وقد احتملت من الجهد والعناء في عملك ما
يضني الأصحاء والأقوياء ، فكيف برجل عليل ضئيل
مثلك ، فارحل مصاحباً ولكن حدثني عما ألم بك من
الهول؟ قال مصدره رسالة الغفران يا سيدي ، فليت أبا
العلاء لم يكتب رسالة الغفران ، قلت لا تقل هذا ولا تكن
أثراً ، فان لغيرك في رسالة الغفران لذة ومتاعاً ، وإذا كانت
قد سلطت عليك الهول الذي لم أعرفه بعد ، فإنها قد
أتاحت لقوم آخرين في الشرق والغرب من الشهرة وبعد
الصوت ما لم يسلط عليهم هولا من الأهوال ، ولم

يغربهم خطباً من الخطوب . ولكن هات حديثك . قال :
ما أشك في أن أبا العلاء كان مجنوناً حين كتب هذه
الرسالة . قلت رب جنون خير من العقل ، ولكن هات
حديثك . قال : أتذكر هذا السخف الذي أغرق فيه إغراقاً
حين ذكر هذين البيتين القديمين من شعر النمر بن تولب :
ألم بصحبتني وهم هجوع . . . خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهي عسلا مصفى . . . إذا شئت وحواري بسمن
قلت هذا من خير ما في الرسالة ، وأي بأس عليه من أن
يفترض أن الشاعر قد وضع مكان حصن في البيت الأول
اسماً آخر كجزء أو حفص أو عمرو ، ثم يلائم بين هذا
الاسم وبين القافية في البيت الثاني ، فهذا نوع من العبث
المباح الذي لا يسوء أحداً ، وهو مع ذلك يدرب الذاكرة
ويظهر شيئاً من المقدرة اللغوية التي يحرص العلماء
والأدباء على إظهارها . قال أنت الذي يزعم أن هذا
العبث لا يسوء أحداً ، وما رأيك في أنه قد ساءني
وجشمني ما رأيت وما لم تر من الأهوال والخطوب . فقد

أراد سوء الحظ أن أنظر في هذا الكتاب ، وأن أقف عند هذا العبث ، فأفكر في هذه الخيالات التي كانت تطرق المحبين والشعراء منهم بنوع خاص ، والتي كانت إذا تطرق المحبين والشعراء منهم بنوع خاص ، والتي كانت إذا طرقت هؤلاء الشعراء أنطقهم بما تعرف وما لا تعرف من رائع الشعر وبارع الكلام . وأغرقت في هذا التفكير وجعلت استعين بالذاكرة على استحضار شيء من الشعر القديم الذي قاله الشعراء في الخيال الطارق والطيف الملم . ثم جعلت اسخر من أبي العلاء ومن جفاء طبعه وخشونة مزاجه ، وجعلت ارثي لأم حصن هذه التي عبث الشاعر بها هذا العبث فلم يترك اسمها حيث وضعه النمر بن تولب ، وإنما حذفه واخذ يضع مكانه أسماء أخرى بعدد حروف المعجم ، ولو أنه كان رقيق القلب دقيق الحس ممتاز الشعور رقيقاً بالغانيات لما أزعج أم حصن عن مكانها ، ولما أفلقها عن موضعها ، ولكنه رجل غليظ لا علم له

بالحب ، ولا حظ له من الرقة ، ولا معرفة له بحسن معاشرة النساء .

وإني لفي ذلك وإذا أنا أحس كأن الأرض تدور تحت قدمي ، وكأن كل شيء يضطرب من حولي ، ولا أكاد التفت إلى ذلك وأفكر فيه حتى يهدأ من حولي كل شيء ، وإذا شخص جميل قد قام مني غير بعيد ، وهو ينظر إلي نظرة عطف ، وعلى وجهه غشاء من كآبة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة كأنها ابتسامة الرضى ، ولكني لا أعرف شيئاً أصدق منها تصويراً للحزن والأسى ، وتمثيلاً للوعة والحسرة ، ولست أدري كيف لم يرعني مقام هذا الشخص الجميل ، فلم أظهر فزعاً ولا اضطراباً ، وإنما أنست إليه وحقت النظر فيه فتبينت فتاة غضة الشباب رائعة الجمال ، لولا أن شبابها يوشك أن يكون وهماً ، ولولا أن جمالها يوشك أن يكون خيالا ، تبينت شخصاً حياً متحركاً نضيراً ، ولكنه على ذلك لا يخلو من شيء

يشبه الموت ، ومن شيء يشبه السكون ، ومن شيء يشبه الذبول . وهو على هذا كله يذكرني بشخص كنت ألفه ويألفني ، وكنت أكبره ويكبرني ، وقد فقدته منذ حين ، فجزعت عليه جزعاً شديداً ، وكثيراً ما سألت نفسي أتراها قد ذكرتني قبل أن تلج باب الموت .

وإني لأنظر إلى هذا الشخص المائل ، وان هذه الخواطر لتمر أمام نفسي وادعة كأنها السحاب الرقيق ، وإذا أنا اسمع صوتاً رقيقاً خافتاً حلوا يسعني إليّ سعياً خفياً من ناحية هذا الشخص المائل غير بعيد . وإذا هذا الصوت يحمل إليّ تحية عذبة هي التي كنت اسمعها من صديقتي حين كنت ألقاها وجه النهار ، وما أكثر ما كنت ألقاها وجه النهار . أصبح بخير يا سيدي . فأجيب أصبحي بخير يا سيدتي . أنك تعرفني أو تكاد تعرفني ، أنك تذكرني وتسال نفسك الآن كما كنت تسألها من قبل ، إذ ذكرتك حين فارقت الحياة وودعت الاحياء ، نعم يا سيدي قد

ذكرتك وألححت فيذكرك ، وكلفت من يقرأ تحيتي
عليك ، ولولا الحياء لكلفت من يدعوك لزيارتي قبل أن
أموت ولكن لم افعل ، ولم يعرض علي ذلك أحد من
الذين كانوا يحيطون بسرير الموت ، على أنني لست آسفة
فأني لم اخسر شيئاً ، لأنني لم أفارق أحداً ممن كنت احب
لقاءهم في تلك الحياة ، إنما أنا أراهم وأسعى بينهم وأتحدث
إلى نفوسهم وأسمع منها ، وكل ما فقدته إنما هي هذه
الأصوات التي كنت اسمعها ، وهذه الأيدي التي كنت
أصافحها . وثق بأنها لا تعدل شيئاً حين أقيسها إلى ما
اسمع الآن من أحاديث الضمائر ونجوى النفوس . وما
كنت لأتراءى لك الآن لولا أنك أغرقت في ذكر الخيال
واستحضار الخيالات . ولست اخفي عليك أنني كنت أريد
حين تراءيت لك أن أداعبك بعض الشيء ، فلا تظن أن
الدعابة مقصورة على الأحياء ، فقد يأخذ الموتى من
الدعابة بنصيب أيضاً . كنت أريد أن أترأى لك على أنني

أم حصن صاحبة النمر بن تولب ، وان اشكر لك عطفك عليّ ورفقك بي ولومك لأبي العلاء . ولكنني لم استطع أن أخدعك لأنني لم أعود خداعك أثناء الحياة . ثم لأنني إنما أقبلت إلى هذا المكان لألقى في روعك رسالة كنت أريد أن تبلغها عني ، وكنت أريد أن القيها إليك كما تلقى الرسائل إلى الناس في الأحلام ، ولكنني رأيتك يقظان تنظر في هذا الكتاب فانتظرت لعل النوم أن يسعى اليك ، ثم رأيتك تذكر الخيال وتستحضر الاطيف فترأيت لك ، وهل انا الأخيال أو طيف ؟ لا تطل النظر إليّ ولا تقل شيئاً فان نظر الاحياء يؤذيني ، وان اصوات الاحياء تثقل عليّ ، ولكن اسمع مني ولتحدث نفسك إليّ إذا لم يكن لك يد من حديث ، واني لأعلم انك تريد أن تسألني كيف اتحدث اليك بصوت يشبه صوت الاحياء ، واشفق مع ذلك من سماع صوتك فانا لا اتحدث اليك بصوت يستطيع غيرك أن يسمعه ، إنما انت الذي يمنح هذا الصوت قوته

وتشخصيه ، ولو أن في هذه الغرفة قوماً غيرك لما رأوا من شخصي ما ترى ، ولما سمعوا من صوتي ما تسمع ، ولكن اصغ إليّ فاني أحس مقدم النهار ، واني أكره هذا الضوء الذي يغمر الكون حين تشرق الشمس ، والذي كنت أحبه أشد الحب اثناء الحياة ، والذي لم أحزن على شيء حزني على فراقه قبل أن أموت ، والذي لم أتسل عن شيء كما تسليت عنه الآن .

أصغ إليّ فان أريد أن ألقى إليك رسالتي ، وأن أنصرف عنك قبل أن يهجم ضوء النهار فيبدد ظلمة الليل ، واني لحريصة على أن ألقاك ، فإن كان لقائي يرضيك الآن كما كان يرضيك من قبل ، فأنتهز فرصة كهذه الفرصة ، في ساعة كهذه الساعة ، وانظر في هذا الكتاب وأطل التفكير فيه ، فقد أستجيب لدعائك حينئذ . ثم سكت هذا الصوت قليلاً ، وإنما قتلني معه الحب أيضاً ، فقد تذكر أن زوجي فارقني قبل أن أموت بأشهر ، لأن

مرضي المتصل قد ثقل عليه ، وقد تذكر اني كنت أظهر
تجلداً وعزاء ، وقد تعلم أني كنت أخفي في ذلك غير ما
اضمر ، وأنت كنت تشفق علي مما كنت أخفيه . وكنت
تود لو استطعت أن تسليني عن بعض ما أجد ، فاعلم الآن
أنني حين ثقلت على العلة ، وتورمت أطرافي ، ورأى
الطبيب أن ينزع ذلك الخاتم الذي كان آخر ما بقي لي من
زوجي ، لم أشك في أنه سينزع معه الحياة من هذا الجسم
المريض ، ولم أكره ذلك ، وأي بأس من مفارقة العلة
والياس . فأبلغ زوجي أنني فارقت الحياة وأنا أحبه ، وأن
مقامي في هذه الأرض بعد الموت لن يطول ، وأنه خليق أن
يعلم اني أراه ورافقه ، وأنه خليق أن يرعى ذلك وأن
يذكرني في شيء من الخير والرفق والوفاء ، حتى إذا آن
لهذا الخيال ان يصعد في طبقات الجو وان يمضي إلى ذلك
العالم الذي تعيش فيه خيالات الموتى ، وان تنقطع الصلة
بينه وبينني من الأسباب . قالت ذلك ثم نظرت اليّ نظرة

قوية حادة، لم استطع أن أثبت لها، وإنما أطرقت برأسي إلى الأرض خائفاً وجلاً. ثم رفعت رأسي بعد ذلك ونظرت فلم أر شيئاً، وتسمعت فلم ينتبه إلى صوت وإنما هي رسالة الغفران مبسوطة أمامي أرى فيها عبث أبي العلاء حول شعر النمر بن تولب. هنالك أخذني هلع ما أعرف أين احسست مثله من قبل، وملكني روع كاد يدفعني إلى الصياح لولا بقية من عقل، وفضل من حياء، ففارقت غرفتي وهبطت إلى الحديقة أهيم فيها انتظر مطلع النهار، حتى إذا ارتفعت الشمس قليلاً أوصيت أهلي بما أوصيت واسرعت إليك. أترى بعد ذلك ان سَخَفَ أَبِي العلاء لم يسؤ أحداً؟ قال ذلك ثم أخذته رعدة غريبة اشفقت أن ترده إلى مثل ما كان عليه من الوجل والاضطراب، فما زلت به حتى رددت إليه الامن والهدوء. وقلت مداعباً: ويحك! ألم تقرأ كتاب أناطول فرانس ذلك الذي سماه جريمة سلسفتر بونار؟ إن فيه قصة

إن لم تكن تشبه قصتك هذه من كل وجه ، فإنها قريبة منها
إلى حد ما ، وما أرى إلا انك قد ذكرت صاحبك هذه في
ضوء النهار أو في ظلمة الليل ، حتى إذا أخذت تنظر في
كتابك اخذك هذا النوم الخفيف الذي تراءى فيه الأشباح
والخيالات . قال مغضباً : أقسم لك ما كنت نائماً ولا قريباً
من النائم ، وإنما كنت يقظان أشد ما يكون الناس يقظة
وانتباهاً ، ولكن ما نفع الحديث معك في هذا وأنت لا
تؤمن بعالم الخيال . قلت : فإني أشفق عليك من إيمانك
هذا فقد تستطيع أن تتحول عن دارك ، وأن تفارق القاهرة ،
وأن تنزل من الأرض أي منزل شئت ، فسيترأى لك هذا
الخيال كلما خطر له أن يتحدث اليك ، أو أن يحملك
رسالة إلى الأحياء . وماذا تريد الآن أن تصنع برسالته هذه؟
أتحملها إلى من أنت مكلف أن تحملها إليه أم تكتمها؟ فان
تكن الاولى فماذا تصنع إن لقيك باللوم لأنك تعرض لما لا
ينبغي لك أن تدخل فيه ، وان تكن الثانية فماذا تصنع إن

ألم بك الخيال وسألك عن تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة
والوفاء بالعهد؟ هنالك نهض صاحبى مغاضباً وهو
يقول: ما أشد بغضي للذين يمزحون في غير أوقات
المزاح. ثم انصرف عني وأنا شدي الاشفاق عليه وعلى
كثير من امثاله الذين تطرقهم هذه الخيالات فتملأ قلوب
بعضهم أمناً ورضى، وتملأ قلوب بعضهم الآخر خوفاً
وروعاً.

مدينة سبأ

كان الأديب الفرنسي ملرو نائماً كاليقظان ، أو يقظان كالنائم ، ولا تجد في ذلك شيئاً من الغرابة ، فنوم الأدباء البارعين يقظة ، لأنه مملوء بالأحلام التي قد تكون من الصدق والدقة ، ومن الخصب والانتاج بمنزلة لا يبلغها الحق نفسه في كثير من الأحيان . ويقظة الأدباء نوم ، لأنهم يشغلون فيها عما يحيط بهم من هذه الحقائق الممكنة الواقعة بما يملأ رؤوسهم من هذه الخيالات والأوهام التي تدنو من نفوسهم حتى تصبح كأنها جزء منها ، وتبعد عن تناولهم حتى تصبح كأنها النجوم وهم يعجبون بقربها منهم فيطمعون فيها ويطمحون إليها ، وهم يشفقون من بعدها عنهم فيحلون في طلبها ويجدون في إدراكها ، ويكلفون في بلوغها أعنف الجهد وأشق العناء .

كان الأديب الفرنسي ملرو إذن نائما كاليقظان ، أو يقظان كالنائم . كان في ساعة من هذه الساعات الحلوة التي يقضيها الأدباء مستمتعين بلونين من الحياة ، أحدهما مختلط مضطرب شاحب ، وهو لون الحياة الواقعة . والآخر واضح جلي ناصع ، وهو لون هذه الحياة التي يحيونها بين الخيالات والأوهام . وانه لفي ذلك وإذا غانية حسناء رائعة الحسن ، جميلة بارعة الجمال ، غريبة الزي ، لم ير مثلها قط فيمن رأى من غانيات باريس ، وفاتنات غير باريس من المدن الأوربية التي زارها بل لم ير مثلها فيما رأى من الصور والرسوم التي تنقل للناس ما حفظته ذاكرة التاريخ القديم والمتوسط والحديث من ملامح الغانيات وأشكالهن وأزيائهن ، وكانت تترأى له من بعيد لا يكاد يراها حتى يفقدها ، ولا يكاد يفكر فيها بعد فقدها حتى تترأى له من جديد ، فلا يكاد ينظر إليها حتى تستخفي ، ولا يكاد يستأنف التفكير فيها حتى تبدو . وكانت إذا تراءت له

ملأت الجو من حوله عبيراً وعرفاً لم يحس مثلهما قط فيما أحس من الأعطار المصنوعة ومن الأعطار الطبيعية ، ومن شذى الرياض وعرف الغابات ، وكانت إذا استخفت ذهب معها هذا العبير ، إلا بقية ضئيلة تضرب في الجو ، كأنها البقية الضئيلة من شعاع الأمل . فكانت نفس الأديب الفرنسي ملرو تتعلق بهذه البقية الضئيلة من العبير ، كما تهيم بهذا الشخص الجميل الرائع الذي كان يبدو ويستخفي في سرعة كومبض البرق . ولو أن هذا الخيال عرض لرجل مثلك أو مثلي على هذا النحو وهو نائم لأيقظه ، أو عرض له وهو يقظان لداد عنه كل وهم أو خيال ، ولدفعه إلى حياة عنيفة متنبهة تشبه الجنون . ولكنه لم يعرض لك ولم يعرض لي ، وإنما عرض للأديب الفرنسي ملرو . ولهذا الأديب قوة ساحرة فيما يظهر ، تمكنه من مقاومة الحق الذي يوقظ النائمين ، ومن مقاومة الوهم الذي ينيم الإيقاظ ، وتمسكه في حال بين الحالين ،

ومنزلة بين المنزلتين ، فإذا هو نائم كاليقظان ويقظان كالنائم . وقد دعا إليه سحره هذا ، فأعانه السحر على أن يظل على الحدود بين المملكتين مملكة اليقظة ، ومملكة النوم . مملكة الحقيقة الباطلة التي يضطرب فيها مثلك ومثلي من الناس ، ومملكة الخيال الصادق التي يضطرب فيها الأدباء والشعراء ، وظل في مكانه يرى هذه الجنية ، ويتنسم عبيرها إذا ظهرت له ، ثم يتعلق بما بقى من نشرها ويهيم بخيالها إذا غابت عنه ، وكأن هذه الجنية كانت تريد أن تعبت بالكاتب الأديب ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، وما أكثر ما تعبت الجن بأبناء الإنسان . ولكن الأديب الفرنسي ملرو ، كان من البراعة والمهارة ، ومن السحر واللباقة ، بحيث استطاع أن يعبت بهذه الجنية الماهرة الماهرة ، وأن يكرهها على أن تبيع له سرها ، وتلقي عنه ما بينها وبينه من الأستار . وأكبر الظن أن الأديب الفرنسي ملرو ، إنما تعلم هذا الفن الذي يستغوي به الجن من رياضة

بسيطة ، ما أجدر أدباءنا وشعراءنا أن يتكلفوها ويأخذوا أنفسهم بها ، وهي رياضة الصيد في الأنهار والغدران . فهذه الرياضة تحتاج إلى صبر طويل ، طويل جداً ، وإلى لباقة ودقة قلما تحتاج إليهما الرياضات الأخرى ، وقد يمكث الصائد على شاطئ الغدير ساعات طوالاً جداً ، ينتظر الصيد فيصيبه أو لا يصيبه ، ولكنه لا ييأس على أية حال .

ظل الكاتب الأديب ملرو ، في حالة هذه بين الحالين ، وفي مقامة هذا بين المملكتين ، وظلت الجنية تبدو له فيستقبلها ، وتغيب عنه فيتبعها ، حتى سئمت منه هذا الصبر ، وضاعت منه بهذا الثبات ، واستيأست من ترويعه والعبث به ، فوقفت منه غير بعيد وحدثت فيه تحديقا طويلا ، لو حدثته في رجل مثلك أو مثلي لمألت قلبه رعبا ، ولدفعته إلى الجنون دفعا ، ولكن الأديب الفرنسي ملرو ثبت لمنظرها الجميل ، وتحديقها الطويل ، مبتسما في

هدوء ، ينظر إليها ولا يقول لها شيئاً . وأخذت هي تدنو منه وتطيل النظر فيه ، وهو ثابت لا يضطرب ، ومستقر لا يريم ، حتى إذا كانت منه بمكان النجى ، سألته في لغة غريبة لم يسمع لفظها قط ، ولكنه فهم معناها كما يفهم معاني اللغة الفرنسية حين تلقى إليه . سألته في هذه اللغة الغريبة ، وفي ابتسام ليس اقل منها غرابة قائلة من تكون ؟ لقد عرضت لكثير مثلك من الناس منذ عشرات القرون ، فروعتهم ترويعا على اختلاف أجيالهم وبيئاتهم ، وتفاوت درجاتهم في العلم والجهل ، وفي الغفلة والذكاء ، حتى اتخذت ترويع الناس لذة من أهون اللذات ، إذا فرغت مما أنا فيه من أعمال الجد التي تحملني كثيرا من الألم والعناء . حدثني من تكون ؟ ولا بأس عليك من أن تجيبني باللغة الفرنسية فسأفهمها عنك ، كما تفهم أنت عني الآن هذه اللغة الحميرية ، التي لا يتكلمها أحد من الناس في هذه الأيام ، والتي يجد علماؤكم في قراءتها وتفسيرها ،

واستنباط قواعدها وأصولها . حدثني من تكون أيها الفتى
الذي عجزت عن ترويجه والعبث به؟ قال الأديب الفرنسي
ملرو ، وهو ينظر هادئاً مبتسماً إلى هذه الجنية : بل حدثيني
أنت من تكونين؟ فإني لم اعرض لك ، وإنما عرضت لي ،
وإني لم احفل بك ، وإنما حفلت بي ، وإني لم ادن منك ،
وإنما دنوت مني ، وإني لم أحاول سحرك بلحظ ولا لفظ ،
ولا حركة ولا عبير ، فما ينبغي لك أن تسأليني ، وإنما
ينبغي لي أن أسألك . ومع ذلك فإني لم أسألك حتى
بدأتني بالسؤال ، ومع ذلك فإني قادر على أن أعفيك من
الجواب وعلى أن أدعك تمضين في طريقك ، فما أكثر من
يعرض لي من أمثالك ، وما أكثر ما أتحدث إليهن وما
يتحدثن إليّ ، ولئن فاتني أن أعرفك واسمع من أنباءك
فقد عرفت من قبلك خيالات أخرى ، أستطيع أن أستأنف
لقاءها متى شئت ، وإن أقص عليها من أنباء الأحياء ،
وتقص على من أنباء الأموات . قالت الجنية أو قال

الخيال : ما شد طغيانكم أيها الناس ، إنكم لضعاف أشنع الضعف ، ولكن المكر يجعل ضعفكم قوة ، وذلكم عزة ، وجهلكم علما . حدثني يا فتى من تكون؟ وإلا فإني قادرة على أن أسوءك ، قال بل حدثني أنت من تكونين ، واستيقني انك لا تقدرين من الإساءة إلي على شيء ، بل أنا قادر إن شئت على أن اغلق بيني وبينك الباب ، واقطع بيني وبينك الأسباب . وأي شيء ايسر من أن امضي إلى هذه الناحية ، فإذا أنا في مملكة اليقظة التي لا وهم فيه ولا خيال ، وإلى هذه الناحية فإذا أنا في مملكة النوم العميق التي لا تستطيع الأحلام أن تدنو منها أو تجد إليها سبيلا . قالت فإني أراك على قوتك ذكيا ماهرا ، تحسن الحوار وتعرف كيف تقطع الطريق على خصومك ومحاوريك . ما أرى ألا انك جني قد اتخذت شكل إنسان ، وما أرى إلا إننا نستطيع أن نتفق فنعبث بالناس جميعا ، ونكيد لهم جميعا ، ونخدعهم جميعا ساعة من نهار ، أو يوما من أسبوع . قال

بل أشهراً كاملة من عام كامل ، بل عاماً كاملاً من أعوام طوال ، فحدثيني من تكونين أحدثك من أكون . واعلمي منذ الآن إنني أكره ترويع الناس والعبث بعقولهم ، فإن الرجل الممتاز حقاً هو الذي يحسن العبث بعقول معاصريه ، فإن استطاع مع ذلك أن يعبث بخيالهم وآمالهم وأيديهم وجيوبهم ، فهو الرجل العبقري حقاً . فحدثيني من تكونين أحدثك من أكون . فقد يخيل إلي أن سيكون لهذه الساعة في حياة الناس شأن . قالت وهي تبسم ابتساماً عريضاً ، وأنا أيضاً أرى هذا . فهل سمعت شيئاً من حديث تلك المملكة التي امتلأت بذكرها كتب القصص والتاريخ ؟ قال أي مملكة تريدان ؟ فما أكثر الملكات اللاتي ملأ ذكرهن كتب القصص والأدب والتاريخ . قالت في شيء من الدل ، وهذا العرف الذي يملأ الجو من حولك ، والذي يكاد يذهلك ، لولا أنك رجل ممتاز لا يعرف الذهول إليه سبيلاً ، ألا يدلك على شيء ؟

قال بلى ! انه يدلني على انك قد سریت من الشرق ، فهذا العرف لا عهد لي بمثله إلا في كتب القصص والتاريخ . ألا تكونين قد أقبلت من بلاد اليمن ، تلك التي تحدث عنها القدماء والمحدثون؟ قالت قد عرفتني ، فأنا جنية من ارض اليمن ، أقبلت اعبت ببعض أهل الغرب ، وابحث للجن اليمانيين عن بعض الفرائس ، فظفرت بك ، قال بل وقعت في يدي ، فمن أي بلاد اليمن أقبلت؟ قالت من تلك المدينة العظيمة التي كانت تملكها تلك الملكة القديمة العظيمة . قال ملكة سبأ؟ قالت هي هي ! : قال وعلام نستطيع أن نتفق؟ قالت على أن نعبث بالناس شيئاً . ثم نهدي إليهم بعد ذلك ما يعوضهم من هذا العبث احسن تعويض . ثم اتصل الحديث بينهما وانقطع ، ثم اتصل مرة أخرى وانقطع ، ثم أصبح الناس وإذا الأديب الفرنسي ملروير بالقاهرة في طيارة قد أنشئت له ، فيقيم في القاهرة يوماً وبعض يوم ، ثم يفارقها ، ثم تمضي أيام ثم يخفق

البرق بأنه قد استكشف مدينة سبأ في اقل من تسع ساعات! . طار من جيوتي فعبر البحر ثم مضى حتى انتهى إلى الربع الخالي ، وكانت صاحبتة الجنية قد سبقته وضربت له موعدا في تلك العاصمة الجميلة ، ورسمت له الطريق التي يجب عليه أن يسلكها رسما دقيقا صادقا ، فلما انتهى إلى مواعده صور من المدينة ما صور ، لم يهبط إلى الأرض ، ولكن جنيته صعدت إليه ، ودلته على اجمل المناظر واجدرها أن يخلب الناس ويسحر ألبابهم . ثم عاد إلى باريس وقد سبقته إليها الأنباء . والناس من أمره بين الشك واليقين ، فكتب المقالات ، وألقى الأحاديث ونشر بعض الصور ، فأما العلماء فأنكروا ، وأي شيء ايسر على العلماء من الإنكار؟ وأما غير العلماء فصدقوا وأي شيء ايسر على غير العلماء من التصديق؟

ثم تنتقل الأنباء من أوروبا إلى أمريكا عابرة إليها المحيط ، فيضطرب العالم الجديد اضطرابا ، وإذا البرنامج

كله قد تحقق ، دهش الناس ثم اضطربوا ، ثم صدقوا ، ثم اندفعوا ، فكان العبث بالعقول ، ثم بالخيال ثم بالأيدي ، ثم بالجيوب ، فإذا كان شهر نوفمبر ، فإن البعثة ستعبر المحيط ، ثم تعبر البحر أيضا ، ثم تمضي في الصحراء ، وما أكثر ما في الصحراء العربية الجنوبية من بقايا المدن القديمة التي عرفها الناس والتي لم يعرفوها ، ومن يدري ! ، ! لعل هذه الجنية التي تراءت للأديب الفرنسي ملرو ، أن تبر بالوعد ، وتفي بالعهد ، وتهدي إلى العلماء المنكرين وغير العلماء المصدقين ، مدينة قديمة فيها من الآثار ما يعرضهم من هذا العبث الذي يخضعون له في هذه الأيام تعويضا حسنا .

لا ينبغي انم ننكر على الأدباء حياتهم هذه التي يمضون فيها مع الخيال والوهم ، ويسمعون فيها لأحاديث الجن والشياطين ، ويتبعون فيها آمالهم وأمانيتهم ، فإن هذه الحياة لذيدة في نفسها بالقياس إلى الأدباء أنفسهم ، وبالقياس إلى

الناس حين يسمعون أنباءها . ثم هي في كثير من الأحيان
خصبة منتجة ، تبدأ بالحلم والوهم والأمل ، وتنتهي إلى
اليقظة والحق واليقين . لا ينبغي أن ننكر على الأدباء
حياتهم هذه وإنما ينبغي أن نتمنى لأدبائنا وشعرائنا حياة
مثلها يملؤها الوهم والخيال والأمل ، ويملؤها النشاط والجد
والعمل والصبر على احتمال الجهد ، وعلى احتمال
السخرية والاستهزاء بنوع خاص .